

# تعليم الكبار والتغير الحضارى

## منظور إسلامى

### مقدمة :

لعل أجلي مظاهر التغير فى عصرنا الحاضر وأكثرها دلالة وقوة هو مفهوم التغير نفسه، فبعد أن كان وجوده دليل خلل وفساد، أصبح هذا الوجود دليل صحة وسلامة ، وبعد أن كان هذا الوجود بالتالى يثير القلق والتشاؤم أصبح يبيث الطمأنينة والتفاؤل. كان كذلك حيث تحكم فى الإنسان محولا إياه ريشة فى مهب الريح، وأصبح هكذا اليوم حيث تحكم فيه الإنسان ليصبح طاقة تقدم وأداة فاعلية وطريقا للتطور والتجديد .

كانت المعرفة الحقّة فى الفكر الفلسفى اليونانى القديم الذى يعد النبع الأساسى لكل الفلسفات الغربية فى العصور الوسطى والحديثة وأثر إلى حد ما فى نظرات بعض فلاسفة المسلمين ، هى تلك المعرفة التى تتعلق بما هو " ثابت " لا ما هو " متغير " ، على أساس أن الثبات دليل الكمال ، وأن التغير دليل نقص ، ومن هنا فقد كانت " المثل " عند أفلاطون هى موضوع المعرفة الحقّة ، وهى وحدها التى يحصل عنها الإنسان العارف على " اليقين " المنشود الذى تستقر عنده نفس الإنسان ويطمئن، وكانت تلك المثل هى " ماهيات " الأشياء أو " جواهرها " ، وهى لا يتم الوصول إليها إلا بكشف الحجب عن ستار المحسوسات بعمليات متصاعدة من التجريد العقلى، أما هذه المظاهر التى نراها بأعيننا ونلمسها بأيدينا ونشمها بأنوفنا ونسمعها بأذاننا ونتنوقها بألسنتنا فهى ( عوارض ) زائلة ، وإن كان لها من فائدة ، فلإنها فقط " معبر " نعبر عليه من عالم المتغير الذى يحيط به الظن والشك إلى عالم الثبات من الماهيات ذات اليقين .

وعلى نفس المنوال سار أرسطو فى النظر إلى الأثنياء من خلال أنواع ثابتة لا يتحول أحدها إلى الآخر ، تتبدى فى مجموعة " تصورات " تسكن العقل ، بعد أن يفوح فى عالم الحس ليصل - بعد تجاوزه - إلى هذه " الجواهر " للمكنونة ! وبعد مسيرة بحث وتفكير ودراسة استغرقت عشرات القرون ، إذا بالفكر الإنسانى يكشف عن أن الحقيقة التى أضناه البحث عنها إنما تكمن فى هذا التغيير، وأن غاية ما هو مطلوب منه هى أن يرصده بأقصى ما يستطيع من دقة أجهزة وأدوات الرصد والتسجيل وأن يُعمل عقله فى البصر بما بين التغيرات من علاقات، وأن يجتهد فى أن يختزل كل ذلك فى قوانين ونظريات تتيح له أن يتنبأ ويتحكم فلا يصبح للماء الذى أمامه راكدا تهب منه رائحة العفن ، وإنما يصبح ذا حركة وتدفق متحولا إلى طاقة تبعث النور على طريق الحاضر سعيا نحو مستقبل مضبوط .

وإذا كان من المفاهيم المخطوطة التى أشاعتها فلسفات الثبات قديما أن جهد التعليم الحق هو الذى يبدأ مع بداية الوعي والإدراك ووصول النضج العقلى درجة تمكن الإنسان من الفهم والاستيعاب فى سنوات الطفولة ، فإن فلسفة التغيير المعاصرة قد أكدت على أن عملية التعلم قرينة الحياة ، وبالتالي فهى تبدأ من البدء عند ميلاد الإنسان ولا تتوقف بالنسبة إليه إلا عندما ينتقل إلى رحمة الله ، مما تلخصه المقولة المنسوبة إلى الموروث التربوى الإسلامى بأن العلم يطلب من المهد إلى اللحد، وبالتالي فإذا كان " تعليم الصغار " واجبا محتوما ، فإن " تعليم الكبار " أيضا واجب محتوم على كل أمة تبتغى نهضة وعلى كل دولة تسعى إلى تقدم .

والإسلام فى كل توجيهاته وعبادته وتشريعاته ، إذ يسعى لخير الناس ومصالحة العباد فلأن هذا يعد نتيجة منطقية لحقيقة أن الله هو " رب العالمين " وهو " غنى عن العالمين " .

فلأنه ( رب العالمين ) اتجه بالتطوير والإصلاح والتعمير إلى أمم العالم دون تفرقة بين أبيض وأسود ، بين غنى وفقير ، بين ذكر وأنثى .

ولأنه ( غنى عن العالمين ) فقد أراد بهذا الخير المتدفق على ظهر الأرض والكامن في باطنها ، والسائر في السموات العلاء ، مصلحة الإنسان نفسه .

ومن هنا كان طبيعيا أيضا أن يعين الإسلام الإنسان على تقبل التغيير وأن يحثه على فهمه ، وأن يطالبه بالتحكم فيه ، وأن يشدد على أن الطريق إلى هذا وذاك إنما هو " بعلم " لا يرتبط بمرحلة عمرية بعينها وإنما بعلم يمتد بامتداد الحياة .

### مفهوم التغيير الحضارى :

إذا كان كل من أفلاطون وأرسطو قد قالوا ما قالاه من حيث تأكيد فلسفة " الثبات " ونبذ فلسفة التغيير ، وإذا كانت آراؤهما هي التي تسببت قرونا عدة وأثرت على عشرات المفكرين ، فإن عصرهما نفسه قد شهد صيحة هامة تذهب إلى أن " التغيير " هو حقيقة الكون الذى نعيش فيه ، لكن هذه الصيحة ذهبت أدراج الرياح ولم ينتبه إليها أحد بالدرجة التى تستحقها إلا - ربما - فى القرن العشرين .

إنها صيحة " هراقليطس " عند ذهب إلى أنك لا تستطيع أن تنزل النهر الواحد مرتين ، لأن مياهه متغيرة باستمرار .

فالتغيير هنا يشير إلى انتقال من حال إلى حال آخر ومن وضع إلى آخر وهذا المعنى لا يكاد يبعد كثيرا عن معنى التغيير وحقيقته ، ذلك المعنى الذى عبرت عنه أيضا تلك المقولة الشائعة : " دوام الحال من المحال " ، تلك المقولة

التي عبرت أصدق تعبير عن قضيتنا دون فلسفة ، فكأنها من نوع تلك البديهيات ، التي تحمل من الوضوح الذاتي ما يجعلها بغير حاجة إلى أن نسوق البراهين على صحتها .

ولا نظن أن " التغيير " من المفاهيم التي تستحق أن نقف عندها طويلا شارحين "معناها" فهي أشبه " بالكهرباء " التي تحتاج معرفتها إلى معرفة جوانبها وآثارها أكثر مما يتطلبه الأمر من حيث التعرف على " معناها " .

ومن هنا فليست القضية قضية معنى التغيير ، بقدر ما هي قضية " مجال " التغيير و"نوعه" و "مداه" و "آثاره" و "أبعاده" ، وهي المسائل التي نرجو أن تتضح بقدر الطاقة من خلال صفحات هذه الدراسة .

وإذا كان مفهوم " التغيير " لا يحتاج إلى وقفة حيث هناك ما يشبه الاتفاق عليه والتساميم به في عصرنا الحاضر إلا أن الموقف يختلف بالنسبة إلى نفس المفهوم عندما نلحق به هذه الصفة فنقول " تغيير حضارى " ، ذلك أن مفهوم الحضارة واحد من تلك المفاهيم التي يكثر عندها الجدل والاختلاف . ومع تعدد المفاهيم الخاصة بالحضارة إلا أننا يمكن أن نصنفها في فئات أربع تتلخص فيما يلي : (١)

أ- مذهب ينظر إلى الثقافة Culture والحضارة Civilization على أنهما مفهومان مترادفان .

ب- مذهب آخر يفهم الحضارة بمعنى الثقافة عندما تتميز الأخيرة بدرجة أعظم من التعقيد وبعدد كبير من الخصائص المميزة .

ج- مذهب ثالث ينظر إلى الحضارة على أنها الثقافة حين تتميز الأخيرة بعناصر وخصائص متقدمة نوعيا ، وممكنة القياس ببعض معايير التقدم .

د- مذهب رابع يعارض الحضارة بالثقافة على اعتبار أن " الثقافة " ترمز إلى تلك الأفكار والابتكارات الإنسانية المتعلقة بالأساطير Mythology و " الدين " و " الفن " و"الأدب" ، على حين أن " الحضارة " هي مجال الابتكارات الإنسانية المتعلقة بالعلوم والتكنولوجيا .

والحضارة في اللغة هي الإقامة في الحضر والحضرة والحاضرة ، والحضارة بكسر الحاء وبفتحها أحيانا ، هي خلاف البادية .. وتبدي الحضري ، أقام في البادية ، وتحضر البدوي أقام في الحاضرة (٢) . والمدرك الحضر ، ومدرة الرجل قريته وبلدته ، وبنو مدراء هم أهل الحضر (٣) .

فالحضارة في اللغة تدل على نوع خاص من الحياة ، هو الاستقرار والإقامة الدائمة ، وليس ضرورياً أن يكون ذلك الاستقرار في مدينة ، بل إن الاستقرار نشأ تاريخياً في قرى صغيرة ، ثم تطورت القرى بعد ذلك واتسعت ، وجاءت نشأة المدن متأخرة ، سواء منها القديمة أو الحديثة .

ومن المصطلحات التي تختلط بالحضارة ( المدنية ) ، والمدنية هي في العربية مصدر صناعي من المدينة ، ومدن المذائن مصرها ، والنسبة للإنسان مدني ، وللطائر والحيوان مديني (٤) .

ومن رأى أحد المفكرين العرب المحدثين (٥) أن تكون المدنية كما هي في الاستعمال إلى حد ما ترجمة لكلمة Civilization التي تدل على مرتبة من مراتب الحضارة ، أو على صورة من صورها ، فهي تعنى مظاهر التقدم التكنولوجي والآلي . وبمعنى آخر فمفكرنا يذهب إلى أن المدنية هي تلك الظواهر القائمة على أسس موضوعية من المعرفة اليقينية ، أو على افتراضات كونية فيما هو خارج عن نطاق الفكر البشري والمنطق الإنساني ، فالتطبيقات العلمية الرياضية الصالحة في كل زمان ومكان هي مدنية .

والحق أنه قد يكون من الصعب مناقشة مختلف الاتجاهات والمفاهيم المتصلة بالحضارة في الحيز الحالي خاصة وان الاختلاف في المفاهيم والمصطلحات أمر وارد وشائع في العلوم الاجتماعية ، وبالتالي فقد يمكن لنا أن نثبت للقارئ المعنى الذي سنتعامل به في الدراسة الحالية ، دون أن نزعم أنه الحق الذي يدحض كافة وجهات النظر الأخرى، أما هذا المعنى الذي نرتضيه فهو الذي يذهب إلى أن " الثقافة " إذا كانت هذا الكل المركب المعقد من المكتسبات البشرية ، المادية والمعنوية ، خلال تفاعل الإنسان مع غيره من بني البشر ومع مظاهر الكون المختلفة ، فإن ( الحضارة ) هي ذلك المستوى المتقدم من هذا المركب المكتسب والذي تنظمه ملامح فلسفة عامة وتميزه خصائص بعينها ويشكل ( علامة ) على طريق التطور البشرى تضيف إليه وتدفعه إلى أمام .

### أبعاد التغير الحضارى :

للتغير الحضارى أبعاد متعددة ، ربما يؤدي استجلاؤها إلى مزيد من الوضوح لمفهومه ومزيد من الوعي بفاعليته .

وتتراوح هذه الأبعاد بين :

- بعد ( الإنسان ) الذى هو ( منتج ) للتغير ، وهو فى نفس الوقت ( مستهلكه ) .

- وبعد ( المجتمع ) الذى يتيح بمناخه وبتفاعلاته وتوليدته للحاجات الفرصة للإنسان كى ينتج ويستهلك .

- وبعد ( الكون ) الذى يمثل ( المسرح ) كما يمثل نبع ( المادة الخام ) و ( الطاقة ) للتغير ، فضلا عما به من سنن التغير وتحكمه

- بعد (الأيدولوجيا ) أو ( العقيدة ) التى ( تؤطر ) الحركة وتحكم الفعل وتوجه المسار.

- وبعد ( المعرفة ) التى هى المصاييح الكاشفة والعقل المفكر للتغير .

- وبعد ( الزمان ) الذى يحكم ( بالتراكم ) مسار التقدم أو التخلف فى التغير الحضارى.

ويمكن اختزال هذه الأبعاد الستة إلى فئات ثلاث :

### ١ - أبعاد انسانية واجتماعية :

فلقد سبق لنا القول بأن الحضارة " مكتسب بشرى " مما يشير إلى طبيعتها الإنسانية ، فإذا كان الله جلت قدرته قد خلق ( الإنسان ) ، كما خلق ( الكون ) الذى يعيش فيه الإنسان ، فإنه كذلك قد خلق فى هذا الإنسان من القدرات والمهارات ما يمكنه أن يستخرج ويستثمر ما أودعه الله فى الكون من ثروات ليخلق بالتفاعل بين هذا وذاك مظاهر الحضارة المختلفة .

من أجل هذا كان لنا أن نؤكد تلك الحقيقة التى تشير إلى انفراد الإنسان بصنع الحضارة، بحيث إذا صح القول بأن الإنسان هو ( الكائن العاقل ) أو أن الإنسان ( مدنى ) بطبعه ، فإن ما هو أكثر دلالة من هذا وذاك أن نقول أن الإنسان هو الكائن الذى صنع ويصنع حضارة ، لأن هذه العملية نفسها تتضمن ضرورة وجود ( العقل ) وحتمية أن يتم هذا فى ( جماعة ) .

كذلك فإننا نستطيع القول بأن الإنسان إذا كان هو صانع الحضارة ، فإن الحضارة نفسها هى التى تجعل الإنسان إنسانا ، ذلك أن الإنسان لا يكون إنسانا بمجرد الوجود البيولوجى المحدد فى شكل معين وبوظائف خاصة وإنما يكون كذلك بما يبتكره من أنظمة سياسية واجتماعية واقتصادية ، وبما يتحدث به من

لغات ولهجات وأساليب بيانية، وبما يتوجه به من قيم وعادات وتقاليد، وبما ييسر به كسب الرزق من أجهزة ومعدات .. إلى غير هذا وذلك من مظاهر الحضارة .

وإذا كانت الحضارة إنسانية ( المنشأ ) فلا بد وأن تكون كذلك إنسانية ( المنتهى ) بمعنى أن تستهدف خير هذا الإنسان الصانع واستقراره وطمأنينته .

إننا أحيانا ما نسمع ونقرأ فى السنوات الأخيرة أن الحضارة الغربية الحديثة مثلا قد أفقدت الإنسان إنسانيته ، ولا يعنى هذا نقض القاعدة التى نتحدث عنها وإنما هى صيحة تحذير وعلمية بق ناقوس الخطر بأن مسار الحضارة قد بدأ ينحرف عن أن يجئ بالسعادة والخير للإنسان نتيجة انحراف فى المفاهيم المتعلقة بحقيقة ما يشكل خيرا حقيقيا للإنسان ، وما يشبع السعادة الفعلية .

وغنى عن البيان أننا عندما نشير إلى الإنسان هنا ، لا نعنى الإنسان ( بصفته فردا ) على الإطلاق ، فمن المؤكد أن الإنسان الفرد المنعزل من شأنه أن يعجز عن أن ينتج حضارة ، فالحضارة إنما هى ( إجابة ) أو مجموعة " إجابات " و ( حلول ) لمشكلات تنشأ نتيجة للتفاعل الاجتماعى ومسيرة العمل الجماعى .

ونظرة واحدة إلى مظهر واحد من ملايين المظاهر الحضارية تؤكد هذه الحقيقة ، فوسيلة المواصلات قديما التى كانت تعتمد على الدواب ، كانت ذات سمة فردية ، لكن وسائل المواصلات المتطورة فإننا نلاحظ أنها لا هى فردية المنشأ والصنع ولا هى فردية للغاية والمنتهى، فهى ابتكار لتيسير سبل الاتصال وهى اختراع لىسانى لتسريع التفاعل الاجتماعى .

## ٢- الأبعاد المكانيّة والزمنيّة :

فالأرض بما تحمل من معادن يصعب حصرها ، يستخرجها الإنسان ويسخرها ليصنع منها الطاقات المحركة والأجهزة العاملة، وهى التى يستنتبت فيها مختلف الزروع ليأكل منها فيستطيع الاستمرار فى الحياة ، وينمو هو وما يعتمد عليه من حيوان ، وهى التى يقيم عليها بيوته التى تأويه ، بل وهى التى يسير عليها ويسعى .

وهكذا بالنسبة للبحار والأنهار والمحيطات وما فيها .. وهكذا بالنسبة للشمس والقمر وسائر الكواكب وحركة الضغط الجوى وتبدل الفصول والرياح.

إن الكون هو ( مادة ) الحضارة ، وهو " موضوع " علمها ومعرفتها، وكان يمكن أن تظل ( كنوز ) الكون مطمورة بلا فاعلية ، لولا تلك الحكمة الإلهية التى تجلت فى أمرين هامين كان بهما إمكان تحول هذه الكنوز المطمورة إلى مظاهر حضارة مشهورة ، وهما :

- ما ركب فى الإنسان من استعدادات عقلية ووجدانية ومهارية تتوافق مع هذه الطاقات والكنوز ، ولينظر الإنسان إلى مثال واحدة قد يبدو غاية فى البساطة بحيث قد لا يستلفت (الأنظار) لكنه فى آثاره الإيجابية الحضارية ، بلا حدود ..

فلننظر إلى ( يد ) الإنسان بتكوينها من أصابع تختلف فى الحجم وفى الطول وفى الموقع ، وحركة ( الثنى ) بين فقراتها ، كيف كان للإنسان أن يمسك قلما ليكتب ويسجل ملايين الصفحات عبر الأجيال لتنتقل نتائج معرفته من جيل إلى جيل فينمو العلم وتتراكم المعرفة ؟ وكيف كان يتأتى له أن يمسك بتلك الأجهزة الدقيقة للغاية التى شكلت لحمة العديد من مظاهر الحضارة وسداها !!؟

- ما ركبه سبحانه وتعالى من مظاهر الكون من ( سنن ) تحكم حركة كل شئ بنظام لا يخل ، يجعل بعضه متناغما ومتسقا مع الآخر .. ترى لو لم تكن هذه السنن ، كيف كان يمكن أن يكون هناك علم؟! ولو لم تكن هذه السنن الكونية ، كيف كان يمكن للإنسان أن يتبأ ويتحكم ويسخر للمستقبل لخيرهِ ومعا شر؟

وإذا كان التغيير يعنى انتقالا من حال إلى حال ، فإن هذا الانتقال يحتاج إلى معايير تبين هل هو حركة إلى أمام أم إلى خلف؟ حركة " رجعية " أم حركة " تقدمية " .

ها هنا يجئ بعد الزمان الذى يعبر عن التتالى السائر إلى أمام ، وبعملية التسجيل للأحداث والوقائع التى تتم فى كل لحظة وعهد وفترة، وبمقارنة هذا الذى حدث وذلك الذى سوف يحدث ببعد الزمان فى تقاطعه مع بعد الإنسان، وبعد المجتمع وبعد المكان نستطيع أن نحدد هل هذا التغيير من شأنه أن يدفع إلى أمام أم من شأنه أن يدفع إلى خلف؟!

### ٣- الأبعاد الأيديولوجية والمعرفة :

فالتغيير ليس حركة عشوائية ، ولا هو مجرد تبديل عفوى يحدث بمنطق ( التشكيل الفسيفسائى ) ، وإنما لابد أن يكون كحركة ( السيمفونية ) تنتوع فيها الآلات وتتباين فيها الحركات الجزئية وتتعدد النغمات ، لكنها فى حركتها الكلية ، ومجموعها العام تشكل حركة متناغمة متسقة تسد حاجة لدى الإنسان .

والذى يوفر هذا التناغم وهذا الاتساق لحركة التغيير الحضارى ، هو أن تكون هناك " إيديولوجيا " ضابطة للإيقاع .. إطار فكرى عام مهيمن لا بمعنى القهر والتسلط ، وإنما بمعنى توفير حدود عامة مشتركة تعطى للحضارة مذاقها

الخاص وطابعها المميز وبصمتها التاريخية، وبعبارة موجزة هي " الشخصية الحضارية " إن صح هذا التعبير .

ولننظر نظرة تأمل خاطفة إلى الحضارات الفرعونية والإغريقية والإسلامية ، فهل يستطيع مدقق أن يخفق في البصر بما كانت تقوم عليه كل حضارة من هذه الحضارات من إيديولوجيا أو فلسفة عامة ؟ وهل يستطيع أحد أن يجدد أن لكل حضارة من هذه الحضارات شخصيتها المتميزة ، وبصمتها على حركة التاريخ ؟

والإيديولوجيا الحاكمة الموجهة ، قد تكون ديانة وضعية كما في الهند والصين ومصر والعراق ، وقد تكون فلسفة إنسانية كما رأينا في الحضارة اليونانية القديمة ، وقد تكون ديانة سماوية ، كما رأينا في الحضارة المسيحية وفي الحضارة الإسلامية .

وإذا كانت ( الأيديولوجيا ) تعبر عن ( الفكر العام ) ، فإن المعرفة تعبر عن ( الفكر الخاص ) والذي يتصل بكل جزئية من جزئيات الإنسان والكون ، فالمعرفة الخاصة بجسم الإنسان المتمثلة بعلوم الطب والمعرفة الخاصة بالحيوان المتمثلة بعلوم الحيوان ... وهكذا الشأن في علوم النبات والجغرافيا والاقتصاد والسياسة والتربية وعلم النفس والرياضيات والفيزياء والكيمياء وعلوم الهندسة .. الخ .

هذه المعرفة هي أداة الإنسان الرئيسية لصنع الحضارة بمختلف مجالاتها واتجاهاتها وسبلها ، عن طريقها يصل إلى إدراك حقيقة الظواهر وكنهها ، وعن طريقها يبصر ما قد يكون بين بعض هذه الظواهر من علاقات ، وهكذا حق للبعض أن يقول أنه بقدر ما تكون عليه معرفة الأمة بقدر ما تكون درجة تحضرها .

## عمليات التغيير الحضارى :

ونريد بهذا الجزء أن نطل على عملية التغيير الحضارى فى حالتها ( الدينامية ) الفاعلة من خلال بعض العمليات التى نسوق الحديث عنها لا على سبيل الحصر وإنما على سبيل ( التمثيل )، هذا فضلا عن أهمية الإشارة إلى وعينا ببعض تداخل لابد من التسليم به بين بعض العمليات :

١- التراكم : فكثيرا ما نسمع ونقرأ فى بعض المجتمعات عن فرد ما لو وجهة ما قد توصلت إلى (اختراع) أو إلى ( نظرية ) أو إلى ( وجهة نظر ) جديدة ، أو إلى (نظام فعال )، ومع ذلك يظل هذا المجتمع معدودا من غير المجتمعات حاملة راية الحضارة المكونة لقوة الدفع الحضارى .

وتفسير ذلك بسيط ...

فالجهد الحضارى عملية متواصلة ، وسلسلة حلقات متتابعة ، كل خطوة تكمل سابقتها وتهىئ لما تليها ، وأن يجئ للجهد الحضارى كومضة برق خاطفة تمضى لحالها ، فإن هذا وإن كان سيفيد بالتأكيد إلا إنه يظل بحكم ( جزئيته ) وانقطاع مسيرته ضعيف الفاعلية . وإنما يتأتى للتغيير الحضارى الحقيقى بعملية ( تركيب ) للجهود وفق عمليات تنسيق وتنظيم تعين على أن يرتفع البناء طباقا بعد طباق .

والتراكم بطبيعة الحال لا يعنى ( التكرار ) وإنما يتضمن بالضرورة ( التجديد )، ومن ثم الإضافة ، وبالتبعية للتطور والنمو والتقدم .

٢- الإنتشار والغزو : فالمصباح المتوهج ، لابد وأن ينتشر نوره إلى خارجه ، ويقدر قوة توجهه ، بقدر قوة انتشاره ، وهذا هو ما شهدناه من إشعاعات للحضارات المصرية القديمة البابلية والإغريقية والإسلامية ، وحاليا

الغربية . ويجئ هذا الانتشار طبيعياً ومنطقياً وفقاً لما هو معروف بأن الجزء الممتلئ إذا جاوره جزء فارغ أو أقل امتلاءً ، فلا بد أن يفيض الممتلئ على ما هو فارغ .

لكن هذا الانتشار إذا كان يتم في كثير من الأحيان بصورة طبيعية إلا أنه أحيانا ما يتم بطريقة قسرية عندما تعتمد بعض القوى الكبرى ، والتي تتمتع عادة بمستوى حضارى مرتفع إلى تسييد نمط حضارتها وطريقة تفكيرها وأساليب عيشها على بلدان أخرى لتحقيق أهداف تقوم على الاستغلال والهيمنة ، وهذا ما رأيناه على سبيل المثال في عدد من صور الاستعمار، عندما حاولت فرنسا تسييد ثقافتها على شعوب المغرب عامة والجزائر خاصة ، وكما رأينا في محاولة بريطانيا تسييد ثقافتها في مصر والسودان .

وهذه الحالة ، نستطيع تسميتها " بالغزو " إلا أنها صورة أخرى من صور " الحرب " قد لا نسمع فيها قعقة السلاح ودوى القنابل ، ولكن الأهداف النهائية تتماثل مع الحرب المسلحة بل إنها تكون أخطر .

ولو كان هذا الغزو الحضارى مؤدياً بالفعل إلى تطوير المجتمع الذى يتعرض للغزو ويحضره ويرقيه ، لكان فى الأمر الفائدة كل الفائدة ، ولكنه عادة ما يقوم على القهر وواد مظاهر الابتكار وإشاعة أساليب الخنوع والرضا بموقع " الذليل " والتابع .

ومن هنا كانت الخدعة التاريخية الكبرى فى إطلاق اسم " الاستعمار " على هذه الحركات ، فهذه الكلمة تنسب إلى " التعمير " بينما النتيجة المستهدفة كانت هى ( الاستغلال ) فكان ما كان من تخريب وتدمير !

٣- **الانتباس والنقل** : وهذا الفعل غالباً ما يتم من قبل الأكل حضارة مما يعد نتيجة منطقية ، حتى لقد ذهب ابن خلدون إلى القول بأن " المغلوب " مولع

دائما بتقليد الغالب . ومع ذلك فقد يتم الاقتباس والنقل من قبل أمة لا تقل تحضرا عن تلك التي تنقل عنها وخاصة عندما نلمس نقصا معينا في جوانب من الجوانب لديها بينما يوجد لدى الأمة الأخرى، هذا ما نراه من اقتباس اليابان مثلا بعضا من النظريات العلمية الأوروبية والأمريكية .

لكن عملية الاقتباس والنقل خاصة عندما تتم من قبل أمة متخلفة تحيط بها أخطار كثيرة عندما تخطئ الأمة في عملية اختيار ما يستحق الاقتباس والنقل وعندما تخطئ في التوقيت ، وعندما تفقد الاختيار مما قد يؤدي في النهاية إلى مسخ الهوية وإضعاف الذاتية ، كما رأينا مما حدث بالنسبة لتركيا منذ أن تولى أتاتورك أمرها منهيًا توجهها الإسلامي متجها بها إلى أن تكون لأوربية غربية ، فإذا بها بعد عدة عقود تجد نفسها مرفوضة من الجماعة الغربية نفسها ، وهي قد قطعت العديد من الروابط التي كانت تربطها بالثقافة الإسلامية .

٤- التلايح : ونعنى به هنا تبادل الإفادة والاستفادة من التغيير الحضارى

بين قوى متكافئة أو شبه متكافئة تحت مظلة حضارية واحدة فإذا كانت اليابان - كما قمنا فى البند السابق - تجد أنها فى بعض الأحوال بحاجة إلى النقل والاقتباس من بعض البلدان الأوروبية والأمريكية وفى مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا وألمانيا ، فإن هذه البلدان بدورها تفعل نفس الشئ مع اليابان ، وبينها وبين بعضها .

بل إنه فى الوقت الذى كانت فيه قوة أخرى مناطحة للغرب الرأسمالى ، فى ما كان يسمى بالكتلة الشرقية ، كان يحدث نفس الشئ، فطى للرمم مما كان يبدو من تباين النمطين ، إلا أنهما كانا ينتميان إلى نفس المظلة الحضارية الغربية .

وإذا كان البعض يدهش للوهلة الأولى من القول باستفادة البلدان الغربية الرأسمالية من مجموعة الكنتلة الشرقية (قبل سقوطها) ، فإن هذه الدهشة سوف تزول إذا دققنا النظر فى بعض التنظيمات النقابية وقوانينها ومكاسب العمال والضمان الاجتماعى والتأمينات ومجانبة التعليم وما إلى هذا أو ذلك من توجهات تأثرت بالفكر الاشتراكى .

وقد يحدث ( تلقح ) من طرف واحد يكون هو ( المعاصر ) عندما يستفيد من بعض منجزات حضارة ( ماضية ) ، بل إن هذا أمر حتمى رأيناه من استفادة الحضارة الإسلامية ببعض عناصر الحضارة اليونانية والحضارة الهندية والحضارة الفارسية والحضارة الرومانية. وهو الأمر الذى حدث كذلك بالنسبة للحضارة الحديثة عندما استفادت من منجزات الحضارة الإسلامية التى سبقتها .

٥- التخفى للاستمرار : فلأن الحضارة جهد يتميز بالاستمرار ، فإن بعض عناصرها تتخفى فى صور جديدة عندما تتعرض للانهايار والاختفاء من على مسرح الحياة شجرتها الأصلية الكبرى .

إن الاستمرار الذى نقوم به هنا لا نقصده بالنسبة لحضارة بعينها ، فهذا لا يحدث ، حيث لكل حضارة دورتها الزمنية التى قد تطول وقد تقصر وفقاً لكل حالة على حدة ، فتقوم ، ثم تختفى مخفية الطريق لحضارة أخرى جديدة ، فالاستمرار إنن هو للمسيرة الحضارية البشرية العامة .

ولعل من الأمثلة البسيطة التى يمكن الإشارة إليها هنا ، تلك المظاهر التى ترتبط (بالموت) فى الحياة المصرية ، فقد يتوهم البعض أن بعض عادات المسلمين فى مصر فى هذا الشأن " إسلامية " ، وهذا غير صحيح حيث أنها غير موجودة فى بلدان إسلامية أخرى ، وإنما هى " فرعونية " تلبست ببعض

الأشكال العربية الإسلامية حتى تستمر بعد أن اندثرت الحضارة المصرية القديمة وجاءت الحضارة الإسلامية لتتسيد الحضارة المصرية .

ونفس الشيء يمكن قوله بالنسبة للمناسبات الشهيرة بـ ( شم النسيم ) التي التفتت في أذهان البعض بالعهد القبطي ، بينما هي فرعونية الأصل .. وهكذا

### دور التربية في ضبط التغيير الحضارى والتفاعل معه :

ونحن إذا لمعنا النظر في مفهوم التربية وأعملنا أدوات التحليل في مضمونها ، فسوف يتأكد لنا دورها في ضبط التغيير الحضارى والتفاعل معه ، ذلك أن التربية في مفهومها العام هي عملية تنمية شاملة متكاملة للجوانب المختلفة لشخصية الإنسان إلى درجة من الكفاءة والفاعلية تمكنه من حسن التعامل مع متغيرات الحياة النفسية والاجتماعية والبيئة الطبيعية .

فالتربية إذن لن تكون ( طرفا ) مستقلا يمكن أو قد لا يمكن أن يعنى بالتغيير ، وإنما هي بحكم مفهومها وبحكم مفهوم التغيير تجد نفسها في ( قلب المعركة ) إذا صح هذا التعبير ، فالإنسان - كما أسلفنا وهو صانع ( التغيير ) وهو كذلك غايته ، ولكي نحسن عملية للتنمية الشاملة المتكاملة لمختلف جوانب الشخصية ، فلا بد أن يكون هناك ( ضبط ) و ( توجيه ) للتغيير في صالح هذه العملية ، والتغيير إذا كان علينا أن يكون سويا فلا بد أن يكون صانعه سويا وغايته على أعلى قدر ممكن من السوية .

ولعلنا بعد بيان هذا المنطق العام نكون في حاجة إلى قدر من التفصيل ، للأليات المختلفة ، والعمليات المحددة التي يمكن للتربية عن طريقها أن تقوم بما يجب أن تقوم به نحو التغيير الحضارى :

١- إن من أخطر ما يمكن أن يترتب من انحراف نتيجة التغيير الحضارى أن تفقد الأمة البصر الدقيق بالفروق الحقيقية بين ثوابت حضارتها ومتغيراتها ، فإذا كان منطق الكون وسنة الحياة التغيير ، إلا أن هذا لا يعنى التبدل الدائم والتحول فى وزنه وفى أفكاره وفى وظائفه ومهامه ، وفى علاقاته وما شابه هذا وذلك ، ولكنه يظل " فلانا " بالذات .. بصمته تظل ثابتة .. ملامحه العامة .. جنسه .. نوعه ..

وإذا سقنا مثالا على ذلك " اللغة العربية " فسوف نجد أنها تقف فى مقدمة المقومات الأساسية لحضارة الأمة العربية ، فهى من " ثوابتها " التى تحتاج إلى المحافظة عليها ، ولكن المعارف والمعلومات فى المجالات الإنسانية والاجتماعية ، والعديد من النظم السياسية والاجتماعية ، وبعض العادات والتقاليد ، وكذلك ما يتم نقله أو اختراعه من منجزات تقنية ، فهذا مما يحتاج دوما إلى إعادة النظر من حين لآخر لتطويره وتجديده .

وليس معنى هذا أن تقف اللغة العربية جامدة باعتبارها من الثوابت ، هناك مساحة يجب الاعتراف بخضوعها للتجديد، مثل المفردات والمصطلحات التى تجد بالتقدم العلمى والتقنى ، وهناك ما تحتاج إليه بعض أساليبها من التبسيط الذى يجعلها لغة تعليم فعالة ، وهناك صور توظيفها التوظيف الأمثل فى مجالات الحياة العملية .

إن مثل هذا وذلك ليس من الأمور التى يصدر بها قانون أو توجيهات عامة ، وإنما لا تتأتى إلا من خلال العملية التربوية المتمثلة فى تعليم وتعلم مختلف الأنساق المعرفية بحيث يكون هناك هذا الوعى بثوابت الحضارة ومتغيراتها ، وبالتالي ما يكون بحاجة إلى تغيير أسرع من غيره وفق قائمة أولويات .

٢- ومن المعروف أن التغيير الحضارى قد لا يسير بسرعة واحدة فى مختلف الجوانب حيث من الشائع أن نرى تغيرا ملحوظا فى الجوانب المادية المتمثلة فى التكنولوجيا على سبيل المثال ، لكننا نرى سرعة أقل فى جانب النظم الاجتماعية والسياسية والثقافية ، وربما بطئا ملحوظا فى ما يتعلق بالقيم والاتجاهات .

إن هذا الاختلاف فى سرعة للتغير أمر له مبرراته التى قد لا يتسع المجال لبيانها تفصيلا ، لكننا من ناحية أخرى لابد أن نهرع ونتحرك عندما يصل الأمر إلى أن يشكل التوازن المفقود خطرا على بنية القيم والعلاقات الاجتماعية فى الأمة .

وعلى سبيل المثال فقد شهدنا صورا مذهلة من التقدم فى الأجهزة والأوتوات التى نحتاج إليها فى العمل المنزلى ، وشهدنا كذلك تدفقا من النساء إلى الالتحاق بأعمال مختلفة نظير أجر، خارج المنزل . وهذا وذلك من حتميات التغيير الحضارى الذى له متطلباته وفوائده سواء بالنسبة للمرأة لم لأسرتها لم لجملة المجتمع .

لكننا عندما ندقق النظر التحليلى سوف نجد أن نظرة الرجل العربى إلى المرأة العربية على وجه العموم ، وعندما تكون زوجة على وجه الخصوص ، هذه النظرة لم تتغير إلا تغيرا طفيفا ، ذلك أن خروج المرأة إلى العمل ، يودى إلى اقتطاع جزء كبير من الوقت المتاح لها فى المنزل ، فضلا عن استئفلاذ جزء كبير أيضا من الطاقة البدنية والنفسية ، مما كان يقتضى أن تكتسب بعض الحقوق ، وتخفف عنها بعض الواجبات .

ومع ذلك فما زال للرجل العربى يطالبها بأن تقوم بنفس وكل الأولاد التى كانت تقوم بها عندما كانت متفرغة للمنزل .

وما زالت بلدان عربية لا تبذل الجهد الكافي لتعميم دور الحضانة ورياض الأطفال كما ونوعا وإدخالها جزءا أساسيا فى نظام التعليم ، وهذا الجانب بالذات هو الإسهام الحقيقى الذى يمكن أن يقوم به نظام التعليم لمواجهة هذا الخلل فى سرعة التغير بين خروج المرأة للعمل ، وحاجتنا إلى تربية الأطفال فى سن ما قبل المدرسة .

ولا يمكن الاكتفاء بهذا وحده ، وإنما نحن فى حاجة إلى عرض هذه القضية فى بعض برامج التعليم الثانوى والعالى سعيا وراء تصحيح بعض المواقف والاتجاهات نحو المرأة .

٣- ولأن معدل سرعة التغير فى تزايد مذهل ، فقد أفرز هذا لنا ما يعرف الآن بصراع الأجيال .

لقد كان مألوفاً منذ عدة عقود ، حيث كان نمط الأسرة الممتدة ما زال شائعاً أن يتواجد الجد والأب والحفيد ، وربما جد آخر أسبق من الأول ولا نلاحظ اختلافاً وتبايناً فى المفاهيم السائدة وأساليب التعامل القائمة مما وفر قدراً ملحوظاً من الوئام والانسجام بين أفراد العائلة .

لكننا الآن ، وفى ظل اختفاء الأسرة الممتدة لتسود الأسرة النووية المقتصرة على الأب والأم والأبناء نشهد تبايناً واضحاً بين الآباء والأمهات من جانب ، والأبناء من جانب آخر ، فما بالنا بالجدود ؟ بل إن التباين أخذ يتسع بين الأبناء أنفسهم الذين يتفاوتون فى الأعمار تفاوتاً ملحوظاً ، وكان الآباء والأمهات ينتمون إلى قرن آخر غير هذا القرن الذى يعيش فيه الأبناء ، مما يترتب عليه من صور نزاع وعراك بين الفئتين وضعف سبل التفاهم والإقناع والاحتناع .

وأحيانا ما يمتد ذلك إلى خارج المجتمع ، فتسود الشباب عادة اتجاهات رفض واضحة واحتجاج صارخ للنظم والقيم السائدة ، وقد يتخذ هذا الرفض والاحتجاج صور انحراف خلقى فيشيع التحلل ويكثر تعاطى المخدرات، وقد يتخذ الرفض صورة انسحاب من المجتمع باعتبار ذلك احتجاجا صامتا وإشارة إلى عدم الرضا عن التعامل مع البنية القائمة من العلاقات الاجتماعية ، وقد يتخذ الرفض والاحتجاج صورة العنف المسلح وللتطرف مما يشكل أخطار واضحة على المجتمع .

ونفس الشيء نراه يحدث فى مجتمع المدرسة والجامعة إلى الدرجة التى أصبحنا نسمع ونقرأ عندها عن اعتداءات من طلاب بعض معلميهم .

ان الجهد الأكبر فى هذا الشأن إنما يقع على الكبار لمواجهته وتجاوزه . إن تصور إلغاء " الصراع " وهم لا ينبغى الوقوع فيه وإنما يصبح المطلوب هو تلافى آثاره السلبية .

وهنا نجد من الضرورى ونحن نضع خطط التعليم وبرامجه ألا تكون هذه الخطط وهذه البرامج مصورة لأخلاقنا نحن الكبار وتصورتنا فقط بتأثير ادعائنا أننا أدرى بمصالح أبنائنا فهم الأجدر بالتعبير عن احتياجاتهم ، وهم الأولى بالتعبير عن تطلعاتهم المستقبلية ونادرا ما نرى الجهات المسئولة عن وضع برامج التعليم تدخل رأى الذين سوف يستهلكون هذه البرامج، مع أننا نفعل عكس ذلك عندما نقيم مشروعات تجارية ، إذ نقوم بدراسة الجدوى والتي يكون من جوانبها استطلاع آراء ( الزبائن ) ومعرفة أذواقهم واحتياجاتهم !! أليس الأبناء أولى بمثل هذا ؟!

٤- ومما لا يحتاج إلى شهادة منا القول بأن " الغرب " هو الجهة الأساسية والمصدر الرئيسى لإنتاج التغيير الحضارى المعاصر ، مما يعنى أن (

لغته ) أو إن شئنا الدقة ( لغاته ) هي وسيلة الاتصال والتعلم من أجل استيعاب المظاهر المختلفة لمنجزات هذا التغيير .

ولعل في مقدمة اللغات الغربية ، تقف الإنجليزية أولاً ، فالفرنسية ثانياً ، فالألمانية ثالثاً بحيث يصعب ، إن لم نقل ( يستحيل ) على أمتنا العربية أن تواكب ركب التحضر ، ما لم تُعلم أبناءها على الأقل اللغة الأجنبية الأولى .

لكن أخطر ما يمكن أن نقع فيه حقا هو افتقاد الوعي بالترفة بين "تعليم اللغة الأجنبية " و" التعلم باللغة الأجنبية " . وما نلح عليه ونطالب به ، هو الأمر الأول وليس الأمر الثانى ، بكل أسف شديد !

إنه لمن الطبيعى أن تكون الخطوة الأولى فى الاتصال الحضارى من أمة تخلفت بأمر أخرى تقدمت ، هي " الترجمة " من لغة المتقدم إلى لغة المتخلف ، ما يقتضى أن يقوم جهاز التعليم بتعليم اللغة الأجنبية لأبنائه حتى يمكن أن يتوافر للأمة عدد كبير ممن يستطيعون الترجمة ، وحتى تتضخم القاعدة العريضة من قراء الأجنبية لفهم علومها واستيعابها رأينا هذا قد حدث فى التاريخ العربى الإسلامى عندما قامت مراكز ترجمة مما سوف يأتى تفصيله فيما بعد ، وخاصة فى عهد الدولة العباسية . ورأينا هذا أيضا على يد محمد على عندما أخذ يقيم بناء الدولة الحديثة فى مصر فى أوائل القرن التاسع عشر .

لكننا من واقع هاتين التجربتين لم نر تعليما للعلوم المختلفة باللغة الأجنبية ، بل إن محمد على عندما اضطر فى البداية إلى الاستعانة بمعلمين أجانب لتعليم العلوم الحديثة فى المدارس المصرية حيث لم يكن هناك من العرب من يعرفها ، كان يحرص على إيجاد (مترجم) عربى بجوار المعلم الأجنبى .

إننا عندما نُعلم اللغة الغربية ، فإننا نزود أبنائنا ( بالأداة ) وبوسيلة الاتصال ويظل الأبناء مرتبطين بلغة الثقافة الأم ، ولكننا عندما نُعلمهم العلوم

المختلفة باللغة الأجنبية فإننا نقطع الروابط بينهم وبين اللغة الأم ونقف بهم في محيط العقل الغربي ، ذلك لأن اللغة - فضلا عن كونها أداة اتصال - هي مركب ثقافي ونهج عقلي .

٥- وعلى الرغم من تأكيدنا المرة تلو الأخرى بأن " التغيير " سنة كونية وحتمية وبشرية ، إلا أننا ينبغي الاعتراف بأن هناك قطاعات غير قليلة في مجتمعنا العربي تنظر إلى التغيير على إنه ( رحم ) للشورور ومعمل تقريخ للأثام ومولد لانحرافات . هم لا ينكرون (التغيير) ولكنهم بهذا الاعتقاد المسيطر على أذهانهم يتمنون ألا يحدث حتى يتوقف الانحراف وتتحسر الشورور فتضمحل الأثام .

وهنا يصبح من مهمة المربين أن يوضحوا من خلال البرامج والمقررات التي يُطَمونها، ومن خلال الأنشطة التي ينظمونها ويشرفون عليها ، ومن خلال المواقف السلوكية المختلفة أن التغيير ، إذ يكون سنة إلهية فلا بد وأن تكون طاقته الأساسية لصالح الإنسان ولخير الأمة وأن هذه الشورور والأثام والانحرافات ليست قدرا محتوما يرافق التغيير ، وإنما هي قد ترتبط به بفعل غياب الوعي المستنير ، وربما بفعل تطبيقات خاطئة ، وربما لعدم اتخاذ الإجراءات والاستعدادات المختلفة التي لا بد أن ترافق هذا وذلك .

وعلى سبيل المثال فمنذ عقود قليلة رأيت بعض المجتمعات العربية أنه من أجل تحقيق تكافؤ في فرص التعليم وترسيخ قيم العدل الاجتماعي وتهيئة المناخ الصحي لحسن ممارسة القيم الديمقراطية ، فلا بد أن تتاح هذه الفرص التعليمية لكل الناس بحيث لا يحول بينهم وبين التمتع بها عائق الفقر الذي يمتنع في مجتمعات عربية كثيرة، بناء على هذا تقرر أن يقدم التعليم مجانا على أساس أن تتحمل الدولة تكلفته . وكان هذا تغيرا في اتجاه بعض القيم الحضارية المعاصرة فماذا حدث ؟

كان الأخذ بهذا المبدأ الإجتماعى والتربوى يتطلب توفير أعداد أكبر من المعلمين ومضاعفة عدد المدارس ، وما يترتب على هذا وذلك من مضاعفة ميزانية التعليم ..

لكن شيئا من هذا إن كان قد حدث ، فقد حدث بنسبة لا يمكن أن نضمن معها أبدا أن تستمر العملية التعليمية بالكفاءة المطلوبة ، فإذا بمستوى التعليم يضعف وإذا بهذا الضعف التعليمى يفرز للمجتمع مكامن الشرور والآثام التى جعلت كثيرين يشيرون بإصبع الاتهام إلى المبدأ ( مجانية التعليم ) على أنه هو السبب ، مع أنهم لو انتبهوا إلى عدد آخر من البلدان العربية ذات الوفرة الاقتصادية مما مكنها من أن تجمتع التعليم مجانيا مع توفير الإمكانيات اللازمة لوجدوا أنه إن وجدت سلبيات فى هذه البلدان ، فإنها لأسباب أخرى حيث لم تفرز المجانية أيا من هذه السلبيات !

٦- وفى جميع ما ذكرنا فى البنود السابقة المتعلقة بدور التربية وهى تلك التى قد تأتى، نجد الحاجة ماسة إلى ( تعليم حى ) بدلا من هذا ( التعليم الميت ) الشائع، والتعليم يكون حيا عندما يندمج خلايا حية فى نسيج الفكر والسلوك ، ويكون ميتا حين " يُحفظ " ليصبح (عهدة) تختزن فى " الحافظة " العقلية إلى حين عندما يطلب استردادها زمن الامتحان ! إن التعليم عندما يقف عند حد ( التلقين ) و ( الحفظ والاستظهار ) يستحيل أن يملك قدرة على استيعاب التغيير فضلا عن القدرة على ضبطه وتوجيهه والتفاعل معه .

إن الأمر هنا أشبه بالمأكولات التى نتناولها من خضروات وفواكه وخبز وما إلى هذا وذلك ، فهى إذ تمر بعمليات حيوية تقوم بها أجهزة ذات كفاءة وصحة ، تتحول إلى أنسجة وخلايا وشرابين تعين الإنسان على أن يكون حيويا نشطا يكذب ويسعى ، يناضل ويكافح بفاعلية واقتدار . لكن هذه المأكولات عندما تكون معطوبة ، أو غير مناسبة وملائمة للأكل أو تمر بجهاز بالجسم مصاب

بالاضطراب والخلل ، أو لا تمر بعمليات الهضم وتلقى العصارات المختلفة الضرورية ، يستحيل تحولها إلى جزء من نسيج جسم الإنسان ، فيفقد الحيوية ونقل كفاعته العملية في التعامل مع متغيرات الحياة .

وهكذا الأمر بالنسبة للغذاء العقلي. فهو لا بد وأن يسير وفقا لنفس الناموس .. لا بد من حسن هضم ، ولا يتم هذا إلا بوعي وفهم واقتناع فتتحول الأطعمة الفكرية إلى جزء أساسي في نسيج العقل ، فيكتسب صحة وقوة ورشدا يمهده بأسلوب التفاعل الذكي النشط مع متغيرات الحضارة المحيطة .

٧- ومع إيماننا بديمقراطية التغيير الحضارى من حيث الإنتاج وكذلك من حيث الاستهلاك ، إلا أن هذا لا يمكن أن يحجب عنا تلك الحقيقة التى تشير إلى أن النقلات الكبرى والمحطات البارزة على طريق التغيير يرجع الجهد الأكبر فيها إلى كوكبة ممن هيا الله لهم قدرا من النبوغ وطاقته من الابتكار والإبداع .

وإذا كان النبوغ والابتكار يستند بدرجة أساسية إلى ( فطرة ) ، فإن هذا لا يعنى إلغاء للدور التربوى ، فالنبوغ والابتكار للفطرى ( بذرة ) ، والبزرة لا تنمو أليا وإنما لا بد لها من رعاية سقى وتغذية وتهوية .

كذلك هذه المواهب الخاصة ، تحتاج إلى برامج خاصة يكثف فيها الجهد حتى يعيشوا مناخا تترعرع فيه مواهبهم وتنمو .

إن الجمهرة الكبرى من طلابنا يقفون بطبيعة الحال فى ذلك المستوى ( المتوسط ) مما قد يحتم علينا أن نصوصغ نظم للتعليم وبرامجه بحيث تتناسب مع الأغلبية ، ولكننا إذا وسعنا من آفاق النظر التربوى لأدركنا أن المسألة لا تقتصر بالضرورة على الصيغة النظامية المألوفة ، إذ يمكن تقديم برامج إضافية يلتحق بها هذا النفر من الطلاب القادرين عليها عقليا ، ومن الممكن تنظيم مسابقات علمية وأدبية وثقافية وفنية يمكن أن تواجه حاجات هؤلاء الطلاب ،

كذلك من الممكن تقديم بعض الامتيازات كأولوية القبول ، أو التمتع ببعض الخدمات الإضافية .. وهكذا

## موقف الإسلام من التغيير الحضارى

### وأساليب معالجته

#### تصحيح مركز الإنسان فى الوجود

تؤدى بنا الدراسة الواعية للإسلام إلى أهمية النظر إليه " كمنهج حياة " وليس مجرد مجموعة من المعتقدات التى ترافقها مجموعة من العبارات ، وهو بهذا النظر لابد وأن يكون له موقف ايجابى من التغيير الحضارى، ذلك لأن مدى صلاحية المنهج إنما تتبدى خلال ما فى المنهج من إمكانات وطاقت حسن التعامل مع المتغيرات المستجدة بكفاءة واقتدار .

إن هذا المنهج لا يجعل الدين مجرد ذلك النشاط ( الروحى ) الذى لا يعرف كثيرون صورة غيره للدين ، إنما يجعل الدين بوتقة الحياة كلها ، تصهر فيه ، ثم تشكل فى جميع صورها وألوانها ، كما يجعله هو الإطار الذى تزاوّل فيه الحياة كل نشاطها فى داخله (٧) . وهذا الموقف يبدأ من نقطة تصحيح مركز الإنسان فى هذا الوجود ، وتعيين مكانه ودوره ، ووظيفته وحقوقه وواجباته (٨).

إنه ليس إلهًا يَنزاع ( الآلهة ) وتنازعه وليس كذلك حيوانًا جاءت سيادته على الأرض مصانفة ، وليس آلة تحسب قيمته بقوة ( الأحصنة ) التى يساويها فى مدة التحريك والإدارة، وليس عبدًا للمادة ولا هو لوحة تطبع فيها المادة ( أو الطبيعة ) ما تريد . وليس عبدًا للآلة ، تصرف حياته وأفكاره وأوضاعه كما تتصرف هى وتتقلب، وليس (نمرة) ولا مجموعة (نمر) تتحرك داخل القطيع ، بلا شخصية مميزة ، ولا كيان (فردى خاص) .

كلا ، إنما الإنسان إنسان ، هو سيد الأرض ، وهو عبد الله في آن واحد ... وهو مسلط على هذه الأرض ، ومسخر له كل ما فيها ، وعليه أن يخلف الله سبحانه فيها ويغير فيها ويبدل ، وينمي فيها ويرقى وهو معان على استغلال كنوزها وطاقاتها ، معان بما وهبه الله من قوى وطاقات ، ومعان بما فى نواميس هذا الكون من عون للإنسان فى هذا المجال وفى الوقت ذاته هو من نفسه فى حرم مقدس ، حرم من حرمان الله لا يمسه إلا فى حدود ما شرع الله . (٩)

إن المهندس الذى يصنع ( تصميم ) قصر من القصور ، لا يقتصر فى تقدير ( التصميم ) على ما يجب أن يكون فى هذا القصر من حجر للنوم والطعام والضيافة ومرافق المطبخ ودورات المياه ونحوها ، بل يدخل فى حسابه - حتماً - صلة هذا القصر بما يجاوره من طرق وشوارع وجيران ومناظر طبيعية ، وإقبال الرياح وإبهارها ومساقط للنور ، ومداخل الشمس ونحو ذلك .

ونقول - والله المثل الأعلى - أن الإنسان خلق لمهمة فى هذا الكون ، وقد نص سبحانه على هذه المهمة وأوضحها بجلاء حين قال " وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل فى الأرض خليفة " ، فكان من مقتضى حكمة الله أن يسوى هذا الكائن على هذا المثال الذى يتكافأ مع تلك الخلافة وتؤدى به مطالبها (١٠) .

ومكان الإنسان فى القرآن الكريم هو أشرف مكان له فى ميزان العقيدة ، وفى ميزان الفكر وفى ميزان الخليفة التى تلازمه به طبائع الكائن بين عامة الكائنات ، ذلك أنه هو (الكائن المكلف) (١١) ، وهو بهذا التوصيف أصوب فى التعريف من قول القائلين ( الكائن الناطق ) وأشرف فى التقدير .. هو كائن أصوب فى التعريف من الملك الهابط - كما قال (أفلاطون)، ومن الحيوان الصاعد - كما قال فرويد - وأشرف فى التقدير من هذا وذلك ، وليس للكائن الناطق بشئ إن لم يكن هذا للنطق أهلاً لأمانة التكليف ، وليس للملك الهابط

منزلة تهدي إلى طريق الصعود ، أو طريق الهبوط ، وليس الحيوان الصاعد بمنزلة الفصل بين ما كان عليه وما صار إليه ، ولا بمنزلة التمييز بين حال وحال في طريق الارتقاء .

إنما الكائن ( المكلف ) كائن مرتبط بالضرورة بالكد والسعى والنضال من أجل التغيير والتطوير ، وهو في هذا السعى وذاك الكد لابد وأن يستثمر ما وهب من عقل ومن قدرات ، ولا بد أن يجعل يومه أفضل من أمسه ، وأن يسعى إلى أن يكون غده أفضل من يومه .

### الثبات والتطور :

كثيرة هي الدعاوى التي تذهب إلى أن التفكير الديني بصفة عامة أميل إلى الثبات إن لم يكن إلى الجمود ، ومن ثم فإن الإسلام يسير على نفس النهج ، ولعل أشهر ما يستند إليه في هذا الاتجاه ما نقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم أن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار ، والذين يرددون هذا يخلطون بين جوانب يرى الإسلام ضرورة الحفاظ عليها و (تثبيتها ) وجوانب أخرى لابد فيها من التغيير والتطوير ، وبالتالي فإن هذه المقولة النبوية إنما تتعلق بالأصول لا بالفروع !

فالإيمان بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر ، عقيدة ثابتة لا ينبغي لها التغيير، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا ، وأداء الصلوات الخمس كل يوم، وصوم رمضان، وإيتاء الزكاة .. فرائض أساسية لا يلحقها تغيير .. وهكذا وقد أشار الله عز وجل في قرآنه الكريم إلى هذه الثوابت عندما قال :

- ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ (سورة البقرة: ١٧٧)

ويقول : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (سورة النساء: ١٣٦) .

ونجد في مقابل ذلك القسم الآخر الذي تتمثل فيه المرونة ويخضع للاجتهاد الذي قد يختلف ويتغير بتغير واختلاف الزمان والمكان ، وهو ما يتعلق بجزئيات الأحكام ، وفروعها العملية ، وخصوصا في مجال السياسة الشرعية . يقول الإمام ابن القيم في كتابه " إغاثة اللهفان " (١٢) .

" الأحكام نوعان ، نوع لا يتغير عن حالة واحدة هو عليها ، لا بحسب الأزمنة ولا الأمكنة ، ولا اجتهاد الأئمة ، كوجوب اللوجبات ، وتحريم المحرمات والحدود المقدره بالشرع على الجرائم ، ونحو ذلك ، فهذا لا يتطرق إليه تغيير ولا اجتهاد يخالف ما وضع عليه " .

والنوع الثاني : ما يتغير بحسب اقتضاء المصلحة له زمنا ومكانا وحالا كمقايير التعزيرات وأجناسها وصفاتها ، فإن الشارح ينوع فيها حسب المصلحة.

وقد ضرب ابن القيم لذلك عدة أمثلة من سنن النبي صلى الله عليه وسلم ، وسنة خلفائه الراشدين من بعده ثم قال : " وهذا باب واسع اشتبه فيه على كثير من الناس الأحكام الثابتة اللازمة التي لا تتغير بالتعزيرات التابعة للمصالح وجودا وعمدا " .

وإذا كان الثبات يتمثل في رفضه صلى الله عليه وسلم للابتكار والاختراع وكل فنون الابتداع فيما يتعلق بالعبادات ، لأن الأصل في العبادات الحظر والتوقيف ، فلا يعبد الله إلا بما شرعه ولئن به (١٣) ، إلا أنه يقف موقفا مغفيرا من أمور الدنيا من حيث تشجيع الابتكار والاختراع ، مثل وسائل المواصلات التي يشير إليها قوله تعالى بعد ذكر الخيل والبغال والحمير : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا

تَعَلَّمُونَ ﴿ (سورة النحل: ٨)، ومثل أدوات الحرب التي تدخل في قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ (سورة الأنفال: ٦٠)، ومثل صناعة السدود العظيمة التي تشير إليها قصة ( ذى القرنين ) في سورة الكهف ، وسائر الصناعات الحربية والمدنية ، التي تشير إليها الآية الكريمة: ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ (سورة الحديد : ٢٥).

ولهذا رأيناه صلى الله عليه وسلم يحفر الخندق حول المدينة في غزوة الأحزاب ، ويستخدم المنجنيق في غزوة الطائف ، ويحث على الإنتاج الحربى حتى يجعل صانع السهم كالمجاهد الرامى به فى استحقاق المثوبة عند الله ، ويحذر الأمة أن تكفى بالزرع وتتبع أنساب البقر كما رأيناه يتنازل عن رأيه إلى رأى أصحابه فيما يرى أنهم أعلم به وأخبر من أمور الحياة التي لم ينزل الوحي ليعلمها للناس ، وإنما تركت لعقولهم وتجاربهم يتعلمونها بدافع حاجتهم وحرصهم على مصالحهم ومعاشهم (١٤) .

وأظهر مثل على ذلك ، قصة تأبير النخل وتلقيحه ، حيث كان ذلك من عادة أهل المدينة إذ هم أهل نخل وزرع ، فسألهم النبى صلى الله عليه وسلم عن صنيعهم فأخبر به ، فقال : " ما أراه يصلح " ، فبلغهم قوله عليه السلام وظنوه وحيا وتشريعا ، وتركوا التلقيح ، فلم يصلح الثمر فلما علم النبى قال : " إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشئ من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشئ من رأى ، فإنما أنا بشر " ، وفى رواية " إنما ظننت ظنا فلا تؤاخذونى بالظن ، أنتم أعلم بأمر نبيكم ( رواه مسلم ) .

" ومن صفات العرض القرآنى للكون أو الطبيعة ، صفة الحركة والتغير ، فالإشارة إلى حركة الكون وتغيره متكررة فى القرآن بشكل يلفت النظر حقيقة ، حينما يقول عن الشمس والقمر بتصميم عجيب " وَكُلٌّ فِي فَكِّ يَسْتَبْحُونَ " ، وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ " ( سورة الحج ،

الآية ٥). نحن لا نراها حين ينبت النبات أنها تهتز.. هناك حركة أنت تراها هامة ، وهي ليست هامة ، وما أكثر خداع البصر "أولم يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ؟" (سورة الرعد ، الآية ٤١) ، الأرض تتحات أطرافها وتتقص ، والكون في حركة وتوسع "وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ" ، والأيد، للقوة " وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ " (سورة الذاريات ، الآية ٤٧) ، إذا الخلق يتوسع . هذه للحركة وهذا التغيير أمر هام وسنة كونية (١٥).

لقد سبق أن قال بعض فلاسفة المادية المحدثين ( أن أصحاب الأديان يزعمون أن الكون ثابت ) ، لأنه نتيجة إرادة ثابتة ، فهو عالم ثابت غير متحرك ، والحقيقة أن العالم متحرك وليست هناك إرادة علوية . يريد هؤلاء بذلك نفى وجود الله ، بينما الأدلة كثيرة والمظاهر متعددة على صفة ( للحركة ) في الكون في التصور الإسلامي ، لقد قال تعالى : " وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ " (سورة النمل ، الآية ٨٨) ، هي على التصيرين ، سواء أفسرناها على قول من يقول بأن المراد في الآخرة ، ومن يقولون : هذه لم يرد بها الآخرة ، بل الدنيا بدليل قول الله تعالى بعدها : " صنع الله الذي اتقن كل شيء " ، فالإشارة إلى إتقان الصنع ، الأوجه أن يكون في الدنيا وليس في الآخرة (١٦) .

### الاهتمام بالحياة الدنيا :

ومما يتردد على ألسنة البعض أن الأديان - إجمالاً - تبغض الحياة للناس ، وتوجه آمالهم إلى الدار الآخرة ، ومن هنا فإن طبيعة للشخص المتنين تقوم على قلة الاكتراث بالدنيا أو التعويل عليها ويتبع ذلك عجز عن تعميمها وشلل عن مواكبة التغيير الحضارى .

وليس هذا صحيحا بالنسبة للإسلام . إن الإسلام يقيم أركان الإيمان على فهم الحياة بصدق ، والتصرف فيها بعقل وأمانة ، والقيام برسالتها إلى آخر رمق ، ولعل أقرب ما يصور هذه الحقيقة قول رسول الله " إذا قامت الساعة على أحدكم وفي يده فسيلة فليغرسها " !!

وهذا الأمر بغرز الخضر الذى يخرج منه النبات ، فى تلك الآونة العصبية له دلالة حافلة ! (١٧) .

إنه أمر بمواصلة أسباب الحياة ، فى الوقت الذى تغرب فيه الحياة وممن صدر ؟ صدر من نبي يوجه البشر للأخرة وبحث الناس على كره جحيمها وحب نعيمها. وقد يبدو هذا الأمر متناقضا فى بواعثه وغاياته ، وهو متناقض حقا لو أن وظيفة الإسلام بناء الأخرة على أنقاض هذه الحياة ، ولكن الإسلام ليس كذلك ، إنه يحمل صلاح الأخرة نتيجة حتما لصلاح الأولى ، أى يجعل الجنة الأولى لأولى الأيدي والأبصار ، لا لأولى العجز والحجاب ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (سورة الإسراء: ٧٢).

إن حديث الدين المستفيض عن الدار الآخرة إنما يعنى بنفس الدرجة من الإلحاح ، ضرورة الإعداد لها ، وهذا الإعداد لا يكون إلا بمواجهة الحياة الدنيا وإحسان العمل فيها : ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (سورة النمل: ٨٩، ٩٠) .

إن زراعة الأرض عمل من أعمال الدنيا ، فانظر كيف تصحبه نية صالحة فيتحول إلى عمل للجنة وجهد للأخرة (١٨). عن جابر رضى الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من مسلم يغرس غرسا إلا كان ما أكل منه له صدقة ، وما سرق منه له صدقة ، ولا يزرؤه (يأخذ منه) أحد إلا

كان له صدقة إلى يوم القيامة " ! وفى رواية : " لا يخرس للمسلم غرما فيأكل منه انسان ولا دابة ولا طير ، إلا كان له صدقة إلى يوم القيامة "

وفى رواية عن رجل من أصحاب رسول الله يقول : سمعت للنبي صلى الله عليه وسلم بأنتى هاتين يقول : " من نصب شجرة فصبر على حفظها ، والقيام عليها حتى تثمر ، كان له فى كل شئ يصاب من ثمرها صدقة عند الله عز وجل " .

والامام أبو حامد الغزالي ، استلهاما لعقيدة الإسلام، يشن حملة شعواء على هؤلاء الذين لا يبذلون جهدا ملموسا للكسب والرزق فى الحياة الدنيا ، ويشير إلى عدد من الحرف التى يوهم أصحابها الناس أنهم يعملون ، لكنهم فى هذا كاذبون ، وهو يتهم بعض الحرف بأنها " خسيصة " ، إذ يسمى كل ما يندرج تحت بند اللاعمل أو اللاحرفة ، أو اللاجهد حقيقى باسم (الكذابة) ويضعها جنباً إلى جنب مع اللصوصية (١٩) .

فى مؤلفه الشهير (إحياء علوم الدين) يحدثنا عن (بيان حقيقة الدنيا فى نفسها وأشغالها ) التى استغرقت هم الخلق حتى أنستهم أنفسهم وخالقهم ومصدرهم وموردتهم ، ينبهنا فى البداية إلى أن " الدنيا عبارة عن أعيان موجودة ، وللإنسان فيها حظ ، وله فى إصلاحها شغل " وينكر لنا تلك البديهة التى تتمثل فى أن حظ الناس من الدنيا وصالحها استوجبا كثرة الأئسغال والأعمال ، مما يحتاج بعضه إلى نوع تعلم وتعب فى الابتداء (٢٠) .

وهو يقودنا إلى بيت القصيد فيقول : وفى للناس من يغفل عن ذلك فى الصبا فلا يشتغل به ، أو يمنعه عنه مانع فيبقى عاجزا عن الاكتساب لعجزه عن الحرف ، فيحتاج إلى أن يأكل مما سعى فيه غيره ، فيحدث منه حرفتان خسيستان : اللصوصية والكذابة ، إذ يجمعهما أنهما يأكلان من سعى غيرهما ،

ثم الناس يحترزون من اللصوص والمكدين ، ويحفظون عنهم أموالهم فافتقروا إلى صرف عقولهم في استنباط الحيل والتدابير .

اللصوصية نعرفها ، ولا حاجة بنا إلى التفصيل عنها ، لكن ( الكداية ) هي التي تحتاج إلى حديث ، الكدى فى اللغة هو الاستعطاء وحرقة السائل الملح - وهو ما نسميه (بالشحاذة).

يقول الإمام الغزالي : وأما المكدى فإنه إذا طلب ما سعى فيه غيره ، وقيل له اتعب واعمل كما عمل غيرك ، فما لك والبطالة ، فلا يعطى شيئا ، فافتقروا إلى حيلة فى استخراج الأموال وتمهيد العذر لأنفسهم فى البطالة .

من نماذج هؤلاء من احتالوا للتعلل بالعجز ، إما بالحقيقة كجماعة يعمون أولادهم وأنفسهم بالحيلة ليعتذروا بالعمى فيعطون ، وإما بالتعمى والتفالج والتجانن والتمارض ( ادعاء الإصابة بالشلل أو الجنون أو المرض ) وإظهار ذلك بأنواع من الحيل ، مع بيان أن تلك محنة أصابت من غير استحقاق ليكون ذلك سبب الرحمة (٢١) .

ويضيف أيضا : ويدخل فى هذا الجنس - من المهن الخسيسة - الوعاظ والمكدون على رؤوس العوام ، وأخذ أموالهم بأنواع ( الكداية ) .

وقد كان الرجل نافذ البصر عندما صنف كل اكتساب بغير جهد ضمن الأعمال الخسيسة، ووضعها فى مقام اللصوصية ، فالكداية سرقة غير مباشرة لجهد الآخرين ، تأخذ فى ظاهرها طابع الاحتراف والامتهان ، وتقدم للناس فى صورة عمل مشروع ومقبول نسبيا، أما اللصوصية ، فهى سرقة مباشرة لأموال الناس ، خاب محترفوها فى الاحتيال والكداية ، وربما طمعوا فى وفي المال وسريع الكسب (٢٢).

ولعل هذه القضية من أقوى الأدلة وأنصح البراهين المؤكدة على ذلك الموقف الإسلامى الواعى من مسألة التغير الحضارى .

فبمراجعة السور المدنية على حسب ترتيبها فى النزول فى الوحي المبنى ، وبمراجعة الآيات المدنية فى السور المكية حسب ترتيب نزول هذه السور فى الوحي المبنى ، انتقل من وضع المجتمع الجاهلى ، وهو المجتمع المادى للوثى إلى وضع المجتمع صاحب الحضارة الإنسانية الممثلة فى الإيمان بالقيم العليا التى تستشف من ذات المولى جل جلاله ومن صفاته ، وفى العمل تقريبا من هذه القيم فى تطبيق الإنسان المؤمن وسلوكه مع نفس ومع غيره ، انتقل على فترات هى فترات نزول الوحي ، وأخذ مستويات فى التدرج الاجتماعى تقربه من الصورة الواضحة للحضارة الإنسانية ، بقدر ما تبعده عن صورة المادية الوثنية للمجتمع الجاهلى<sup>(٢٣)</sup> .

ومعنى ذلك أن المجتمع الإسلامى لم يتكون فى تشريعه دفعة واحدة ، ولا انتقل فجأة من وضعه السابق إلى الوضع المرغوب فيه ، وهو الوضع الإنسانى أو الإسلامى ، وإنما الوقت الذى شغله نزول الوحي بالقرآن كان هو ذلك الوقت الذى تم التحول فيه من مجتمع المادية إلى مجتمع أصحاب القيم الروحية والإنسانية والتجيم فى نزول الوحي كان المنهج القرآنى فى تطور بناء المجتمع ، فعندما يبلغ المجتمع مستوى معيناً عن طريق العمل طبقاً للإيمان بما نزل من قبل ، ينزل الوحي بتحديد مستوى أرفع يدفع إلى بلوغه إيمان المؤمنين .. وهكذا ، وكلما تجذ مشكلة فى التطبيق بسبب الأعراف والعادات ، أو بسبب تسلط المتبعين السابقين على التفكير أو السلوك ، كلما يأتى الحل فى الكشف عنها وتوضيحها ، وما يقال من أسباب النزول لبعض الآيات إنما يلقى من غير

شك ضوءاً على البواعث التي كونت المشكل الذي نزل الوحي بشأن التوجيه فيه . (٢٤)

وتطور تشريع المجتمع الإسلامى فى نزول الوحي به ، ليس هو تطور مبادئ الإسلام ، إذ مبادئ الإسلام ثابتة وقائمة كما قدمنا ، لأنها تمثل علم الله الكامل الذى لا يقبل الصيرورة والتطور بحال ، وإنما التطور أو التدرج هو فى ( النزول ) بتلك المبادئ حسب أوضاع المجتمع والزمن الذى مر على هذه المبادئ . مر فقط على نزولها والوحي بها ، أى مر بين بعضها بعضاً ، ولكن لم يمر على انتقالها فى ذاتها من حال أدنى إلى حال أفضل ، وهكذا . (٢٥)

وفيما يلى تطبيق لهذه القاعدة :

أ- التدرج فى انتزاع العقائد الفاسدة والعادات الضارة . (٢٦) فقد بعث النبى صلى الله عليه وسلم إلى قوم يعبدون الأصنام ، ويشركون بالله غيره ، ويسفكون الدماء ويشربون الخمر ويزنون ، ويغتصبون الأموال ، ويئذون البنات خشية العار ، ويقتلون الأولاد خشية الفقر ، ويظلمون النساء ويتزوجون نساء الأباء ويجمعون بين الأختين كما يتظالمون وتقع بينهم الحروب لأوهى الأسباب ، كناقاة رعت من حمى ، أو سبق فرس أو نحو ذلك . وكانت الحروب تدوم بينهم عشرات الأعوام حتى تأكل الأخضر واليابس . وكان التكافل والتعاون بينهم يكاد يكون معدوماً ، فلا تراحم بين الأغنياء والفقراء ولا بين السادة والعبيد ، ولا بين الأقوياء والضعفاء .

ومعلوم أن النفس يشق عليها ترك ما تعودته مرة واحدة ، والإقلاع عما اعتقدته بمجرد النهى عنه ، لأن للعقائد - حتى ولو كانت باطلة وللعادات حتى ولو كانت مستهجنة - سلطاناً على النفوس ، والناس أسرى ما ألفوا ونشئوا عليه ، لذلك جاءت مبادئ القرآن للتدرج مع الناس فى انتزاع هذه العقائد

والمنكرات ، ففتهاهم عن عبادة غير الله ، فإذا ما ألقوا عنه ، أخذ في النهى عن منكر غيره .. وهكذا . بل كان القرآن يتدرج معهم فى انتزاع المنكر الواحد ، كما حدث فى تحريم الخمر .

ب- التدرج فى تثبيت العقائد الصحيحة ، والأحكام التعبدية والضوابط الاجتماعية والأخلاق الفاضلة ، فأمرهم أولا بالإيمان بالله وعبادته وحده حتى إذا ما آمنوا بالله دعاهم إلى الإيمان باليوم الآخر ثم الإيمان بالرسول والملائكة . حتى إذا ما اطمأنت قلوبهم بالإيمان وأشربوا حبه ، سهل عليهم بعد ذلك تقبل الأوامر والتشريعات التفصيلية والأحكام العملية ، والفضائل والآداب السامية فأمروا بالصلاة والصدق والعفاف ثم أمروا بالصوم ، ثم بالحج ... الخ . ومن هنا كان مدار الآيات فى القسم المكى - كما أوضحنا من قبل - على إثبات العقائد والفضائل التى لا تختلف باختلاف الشرائع . بخلاف القسم المدى .<sup>(٢١)</sup>

ج- نزول القرآن مفردا : بل أن القرآن فى نزوله راعى مبدأ تربويا هاما ، فمن المبادئ التربوية التى كشف عنها علماء النفس ، أن التدريب الموزع خير من التدريب الذى يتم مرة واحدة ، وكذلك للحفظ .

### الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

وإننا ننظر أيضا إلى هذا المبدأ الإسلامى الشهير بأنه دعوة من شأنها أن تعزز التغيير الحضارى الإيجابى وتبند صور الانحراف السلبى التى قد تتولد نتيجة هذا التغيير ، إذا ما أخذ تطبيق هذا المبدأ على وجهه الصحيح للداعى إلى إرشاد إلى سبل للصلاح وخير الأمة وتطويرها ، والنهى عن كل ما يضرها ويقعد بها عن الطريق فى حدود للتوجيهات الإلهية .

ومن هنا نجد ذلك الاهتمام الواضح فى كل من القرآن الكريم والسنة النبوية بالحملة على مظاهر الفساد الاجتماعى والانحراف الشخصى والدعوة

إلى محاربتة ، والوعد الإلهي بإثابة السائرين على طريق الاستقامة ، وتحذير كل من يسعى بالفساد إلى أنه لن يفلت أبدا من العقاب الإلهي سواء في الدنيا أو الآخرة ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِن مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ (سورة الحج ٤٠ ، ٤١) .

وأیضا : ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ وَأَمَّا مَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ (سورة النازعات ٣٧-٤١) ، وأيضا يقول : ﴿ وَتَتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (سورة آل عمران: ١٠٤).

بل إن منهج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحتم على كل مسلم أن يكون رقيقا على ما يجرى حوله من أعمال ، وما يغيب من أعمال أخرى ووزن كل ذلك بموازين الشرع ثم الأمر بما خفي من المعروف والنهي عما ظهر من المنكر ، على أساس من العلم والمعرفة، وهو منهج يتطلب ، بحكم فريضته ولا سيما على من يرى المنكر ، أن يكون الجميع على شيء من العلم ، بالضروريات ، وهي الحلال والحرام والسنن والواجبات .<sup>(٢٨)</sup>

وتكرار الأمر والنهي على أسماع الناس كلما خفي معروف أو ظهر منكر على مر الأيام ، يحقق من غير شك تنقيف الأمة كلها رجالا ونساء دون جهد ولا إرهاق ، فإن الإنسان لا يفتر عن سماع العلم في كل ساعة من ساعات حياته ، حينما يدعو الناهي غيره إلى ما يصلح شرعا أو يستمع مع كل دعوى إلى دليلها وهو المقصود الأسمى الذي يريده الله لمجتمع المؤمنين .

ودارسو التاريخ يعلمون حق العلم أن الله عز وجل أفاض على أمة المسلمين في صدر الإسلام التدقيق والانتصار لأن الصحابة لم يفرطوا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد ضعف ذلك بعد وفاة أكثرهم ، وهذان الركنان هما - بعد الإيمان - أعظم أركان خير الأمة، ومن هنا فلين الأمة الإسلامية ، فيما يقول بحق صاحب تفسير المنار (٢٩) ، ما فتئت خير أمة أخرجت للناس حتى تركت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالأمة الإسلامية إذن ليست " خير أمة " هكذا على إطلاق وإنما ذلك مرهون بمدى قيم أفرادها وجماعاتها بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا يتفق تماما مع منطق العقل ، وذلك أن الأمة عندما تركز إلى الفساد ولا يسعى أحد من أفرادها إلى وقفه أو إقامة ما من شأنه أن ينميها ويقويها ويطورها وفقا للشريعة الإسلامية وقيمتها واتجاهاتها ، فإن إسلامها يكون منقوصا ، وبالتالي تنتهي عنها صفة ( الخيرية ) المشار إليها في الآية القرآنية الكريمة .

وقد بين ( الفخر الرازي ) في تفسيره نحو ما تقدم من وصف الأمة هنا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان علة لكونها خير أمة أخرجت للناس ، فقال (٣٠) : " وأعلم أن هذا الكلام مستأنف ، والمقصود منه بيان علة تلك الخيرية ، كما تقول : زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم ويقوم بما يصلحهم، وتحقيق الكلام أنه ثبت في أصول الفقه أن ذكر الحكم مقرونا بالوصف المناسب له ، يدل على كون ذلك الحكم مطلقا بذلك الوصف ، فها هنا حكم الله بثبوت وصف الخيرية لهذه الأمة ، ثم ذكر عقيبه هذا الحكم وهذه الطاعات ، وأغنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان ، فوجب كون تلك الخيرية مطلقة بهذه العبادات .

## الخبرة الإسلامية في مواجهة التغير الحضارى

منهج للتجديد ، لا مذهبية تجميد :

إننا إذ نسبط بين يدى القارئ الخبرة الحضارية الإسلامية فى مواجهة التغير لابد وأن نحدد ابتداء انطلاقنا من مبدأ ( توقير السلف ) دون أن يعنى هذا ( التمذهب بالسلفية ) . (٣١)

التمذهب بالسلفية ، يعنى أن للسلف مذهباً خاصاً بهم ، يعبر عن شخصيتهم ، ويعنى أن الذين دخلوا فى المذهب هم من دون سائر المسلمين ، الذين يمثلون حقيقة الإسلام وينهضون بحقه ، فالإسلام يغدو من خلال هذا التصور والفهم هو التابع لهذا المذهب وأصحابه يسير وراءهم أنى ساروا !

أما تقدير السلف واتباعهم ، فإنما يعنى تكريم أولئك الذين أمر رسول الله بتكريمهم من أصحاب القرون الثلاثة الأولى ، الذين أخلصوا دينهم لله ، واعتصموا صادقين بحبل الله كما يعنى اتباعهم فى فهم الإسلام ، والافتداء بهم فى المنهج الذى ترسموه فى فهم القرآن والسنة . (٣٢) فالإسلام فى الحقيقة هو المتبع ، ومنهجه فى الدراسة والفهم هو المحور الأساسى ، أى أن التمذهب بالسلفية هو تعلق بأشخاص ، وهو غير مطلوب ، بينما اتباع السلف هو تعلق بمنهج وموضوع ، وهو مطلوب " والأول وهم مبتدع لم يكن له أى وجود فى عصر السلف الصالح .. والثانى واجب بإيجاب رسول الله له ، وهو جزء لا يتجزأ من آداب الفهم والسلوك الإسلامى " .

أن تستخدم عقلك أنت ، وحواسك أنت ، فهذا ما ألح عليه بعض من العلماء أو الفقهاء المجددين ، ذلك أن " شيوخنا رجال ونحن رجال " ، وقد كان هذا هو رد اثنين من العلماء على قرار الخليفة المستعصم عندما طلب من

علماء الفقه فى المدرسة المستنصرية أن يوقفوا تدريس أى فكر بخلاف أقوال الأئمة ( الأربعة ) وهذا هو ما أدى فيما بعد بإغلاق باب الاجتهاد فى الفقه الإسلامى . (٣٣)

إن أبا داود يروى عن الإمام أحمد بن حنبل قوله : " لا تقلدى ولا مالكا ولا الثورى وخذ من حيث أخذوا " ، ثم قوله " من قلة فقه الرجل أن يقلد دينه الرجال " ، ويرى ابن القيم أنه لهذا السبب لم يؤلف ابن حنبل كتابا فى الفقه وإنما دون أصحابه وتلاميذه مذهبه من أقواله وأفعاله وأجوبته عن أسئلة الآخرين .

وهذا الإمام مالك يعرض عليه الخليفة الرشيد أن يلزم للناس بمذهبه فى الفقه ، ولكن الرجل ينهاه عن ذلك ، إدراكا منه لمخاطر التبريد والتقليد .

وهذا الإمام الشافعى يقول : إذا صح خبر يخالف مذهبي فاتبعوه واعلموا أنه مذهبي ، ويقول أيضا لتلاميذه إذا نكرت لكم ما لم تقبله عقولكم فلا تقبلوه ، فإن العقل مضطر إلى قبول الحق .

والإمام محمد بن على الشوكانى يطرح القضية على الوجه التالى : فى القرن الثالث الهجرى ، وفيه أبو حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل لم يكن فى عصرهم مذهب رجل معين يتدارسونه ولأن حدوث التمدد بمذاهب الأئمة الأربعة إنما كان بعد انقراض هؤلاء الأئمة ، وقد كانوا ( يقصد الأئمة ) على نمط من تقدمهم من السلف فى هجر التقليد وعدم الاعتداد به ، ولأن هذه المذاهب إنما أحدثها عوام المقلدة لأنفسهم ، من دون أن يأذن بها إمام من الأئمة المجتهدين . (٣٤)

إنه لما لا شك فيه أن من أهم الأسباب التى تنفع بعجلة الحضرة إلى الدوران : التجديد ، فإذا لم تخرج الأجيال الجديدة عما قالته الأجيال السابقة

ركنت الحضارة وجمدت ، ومن هنا هاجم ابن القيم الذين يأخذون بالتقليد بغير دليل ، فقال " نقول لطائفة المقلدين : هل تسوغون تقليد كل عالم من السلف والخلف أو تقليد بعضهم دون بعض ؟ فإن سوغتم الجميع كان تسويغكم لتقليد من انتهيتم إلى مذهبه مساويا لتسويغكم تقليد غيره سواء بسواء ، فكيف صارت أقوال هذا العالم مذهباً لكم تفتنون بها وتقتضون وقد سوغتم من تقليد هذا ما سوغتم من تقليد الآخر ، فكيف صار هذا صاحب مذهبكم دون هذا وكلاهما يسوغ أتباعه ، فإذا كانت أقواله من الدين فكيف ساغ لكم دفع الدين وإن لم تكن أقواله من الدين فكيف سوغتم تقليده ؟

ثم إنكم معشر المقلدين ، إذا قال بعض أصحابكم ممن قلدتموه قولاً خلاف قول متبوعكم أو خرجه على قوله جعلتموه وجهاً وقضيتم وألزمتم به فإذا قال الإمام الذي هو نظير متبوعكم أو فوقه قولاً يخالفه لم تلتفتوا إليه ولم تعدوه شيئاً ، ومعلوم أن واحداً من الأئمة الذين هم نظير متبوعكم أجل من جميع أصحابه من أولهم إلى آخرهم ، فمقدوراً أسوأ التقادير أن يكون قوله بمنزلة وجهه في مذهبكم .. فيا لله العجب ! صار من أفتى أو حكم بقول واحد من شيوخ المذهب ، أحق بالقبول ممن أفتى بقول الخلفاء الراشدين وابن عباس وابن مسعود (٣٥) ، وهذا من بركة التقليد بدون النظر في الدليل .

وفي ظل هذا العقل المنفتح انتفت الحساسة من التطلع إلى آخرين من أجناس ومذاهب وعقائد: أخرى ودعوتهم للمشاركة في صنع الحضارة ، من ذلك أن الأطباء المسيحيين في العهدين الأموي والعباسي ظلوا محل الرعاية لدى الخلفاء ، وكان لهم الإشراف على مدارس الطب في بغداد ودمشق فترة زمنية طويلة . كان ابن أثال الطبيب النصراني طبيب معاوية الخاص ، وكان ( سرجون ) كاتبه . وقد عين مروان ( اثناسيوس ) مع آخر اسمه اسحق في بعض مناصب الحكومة في مصر ، ثم بلغ مرتبة الرئاسة في دواوين الدولة ،

وكان عظيم الثراء واسع الجاه حتى ملك أربعة آلاف عبد ، وكثيرا من الدور والقرى والبساتين والذهب والفضة. وقد شيد كنيسة الرها من إيجار أربعمائة حانوت كان يملكها فيها ، وبلغ من شهرته أن وكل إليه عبد الملك بن مروان تعليم أخيه الصغير عبد العزيز ، الذي أصبح واليا على مصر فيما بعد ، وهو والد عمر بن عبد العزيز . (٣٦)

وكانت الحلقات العلمية في حضرة الخلفاء تجمع بين مختلف العلماء على اختلاف أديانهم ومذاهبهم . كانت للمأمون حلقة علمية يجتمع فيها علماء الديانات والمذاهب كلها وكان يقول لهم : ابحثوا ما سئتم من العلم من غير أن يستدل كل واحد منكم بكتابه الديني كي لا تنثور بذلك مشاكل طائفية .

ومثل ذلك كانت الحلقات العلمية الشعبية ، قال خلف بن المثني : \* لقد شهدنا عشرة في البصرة يجتمعون في مجلس لا يعرف مثلهم في الدنيا علما ونباهة ، وهم الخليل بن أحمد صاحب النحو ( سني ) ، والحميري الشاعر وهو ( شيعي ) ، وصالح بن عبد القنوس وهو ( ثنوي ) وسفيان بن مجاشع وهو ( خارجي صفرى ) وبشار بن برد ( وهو شعوبي خليع ماجن ) وحملد عجرد ( وهو زنديق شعوبي ) وابن الرأس الجالوت الشاعر ( وهو يهودي ) وابن نظير المتكلم ( وهو نصراني ) وعمر بن المؤيد ( وهو مجوسى ) وابن منان الحراني الشاعر ( وهو صابئي ) ، كانوا يجتمعون فيتأشدون الأثعار ويتناقلون الأخبار ، ويتحدثون في جو من الود لا تكاد تعرف منهم أن بينهم هذا الاختلاف الشديد في دياناتهم ومذاهبهم . (٣٧)

ويطول بنا المقام لو حاولنا الاستشهاد ببعض النماذج الفكرية لمفكرين استطاعوا أن يستثمروا النهج العقلي ، فيفرزون ثمرات فكرية كان لها دورها في التغيير الحضارى .

من هؤلاء نشير إلى ( الجاحظ ) ، فهو يدعونا إلى التبصر عند النظر ، فإذا كانت لنا قضية يراد لنا أن نحكم فيها ، فلا بد من ( التثبت ) ، وإذا كنا أمام ( شبهة ) فلا بد من ( التوقف ) ، ثم يقدم لنا منهاجاً يرفض الإجابة بـ "لا" فقط أو بـ "نعم" ، لأن للحقائق زوايا وقسمات تستدعي الإجابة العلمية عن مسألتها الربط بين هذه الزوايا والقسمات ، فربما كانت الإجابة في بعض نواحيها بـ ( نعم ) وفي بعضها الآخر بـ ( لا ) . ( ٣٨ )

وهو يعرض لهذا الموقف المنهجي باعتباره منهج في كتابه ( الحيوان ) ، فهو يرفض التمثيل الذي جعل الناس فرقا وشيعا أراحت عقول المتذممين من عناء النظر في كل معضلة وقضية ومسألة عندما " ترك الجمهور الأكبر والسواد الأعظم التوقف عند الشبهة والتثبت عند الحكومة جانبا وأضربوا عنه صفحا ، فليس إلا : لا ، أو نعم ، إلا أن قولهم ( لا ) موصول منهم بالغضب ، وقولهم ( نعم ) موصول منهم بالرضا " ! وينبه الجاحظ على أن هذا المسلك المعيب قد حرم الناس من استخدام نعمة ( الحرية ) فلم يكتشفوا ، بواسطتهم ، الحلال من الحرام ، ولا الحسن من القبح ! إذ قد عزلت الحرية جانبا .. كما يقول بمسلكهم هذا .

وإذا كنا لا نستطيع الزعم بأن الجاحظ هو رائد استخدام الشك سبيلا إلى اليقين إلا أننا نستطيع القول بأنه كان من الرواد الأول ، إذ فرق بين أن يعرض لك شك في أمر ، فتبحث حتى تصل عن طريق هذا الشك إلى اليقين ، كما حدث للبعض وبين أن نقف أمام الأمور ، عمدا وبمنهج ذي قواعد ، موقف الشك الذي يرفض التسليم والراحة الإيمانية إلا بعد اختبار هذه الأمور والتحقق من مقدماتها ببرهان العقل الذي يدحض أو يثبت ، ووسائل النظر والتدبر ، كما رأينا عند ديكرارت ، ومن قبل ، أبا حامد الغزالي ( ٣٩ ) .

ثمة حقيقة لا بد من التنبيه إليها وهي أننا في كل حديثنا عن المنظور الإسلامي إنما نتناوله باعتباره نهجا تربويا، لأنه في لحمته وسداه منهج لصياغة شخصية الإنسان وبالتالي فإن الصفحات القليلة التالية عن ( الجهد التعليمي ) لا تعكس وزنا مماثلا للتعليم في الحضارة الإسلامية ، وإنما هي مجرد أمثلة لجهد ذي طبيعة خاصة نحصره في ذلك المعنى الضيق المراد من التعليم كجهد منظم للتنمية العقلية بالدرجة الأولى ، على أساس أن هذه الصورة من صور التنمية إنما هي ( أداة ) يقتحم بها الإنسان سائر مجالات التغيير الحضارى .

فعندما أمن الرسول دعوته واستقر بالمدينة ، وقد تكون المجتمع الإسلامي الناشئ على أسس حضارية وقيم ثقافية في إطار الدين الجديد فإنه سرعان ما نهض صلى الله عليه وسلم بمحاربة الأمية وتركية الأميين ، واستقر نصره الإسلامي الأول في غزوة بدر ، وربط فداء كل أسير بتعليم عشرة من غلمان المسلمين من أهل المدينة تعليما وظيفيا يكسبهم مهارات الكتابة والقراءة ، وكانت هذه بداية طيبة في حركة تنقيفية متصلة لجماهير المسلمين صغارا وكبارا . (٤٠)

وعندما ندب فريق كبير من رجال مكة للاشتراك في تأديب العاصين من مرتدى القبائل وذلك في عهد الخليفة أبي بكر ، أو اختير في العمل في المدينة بجانب بيت الخليفة ، ظل الكثير من شيوخها عاكفا على علمه من القرآن وظل شبابها يتدلس ما حفظه من آياته . وكان من الطبيعي أن يزداد عدد الكتائب الذين حرصوا على تدوين ما تلقوا من آياته عن شيوخ الصحابة وكبار المهاجرين سواء في عهد أبو بكر أو في عهد عثمان أو عهد علي . (٤١)

ولما توسعت الفتوحات الإسلامية وسارت جيوش المسلمين خارج الجزيرة العربية برزت الكتابيب بصورة واضحة ، وتعددت فى كافة المدن والعواصم والقرى التى حل الفاتحون بها . ولا شك أن كثرة الفتوحات ، واتساع رقعة الدولة الإسلامية وتحمس الناس الشديد للقرآن الكريم قد كان سببا لبروز ظاهرة تعدد وانتشار الكتابيب . (٤٢)

ولقد كتب ابن حزم يقول : " مات رسول الله والإسلام قد انتشر وظهر فى جميع جزيرة العرب من منقطع البحر المعروف ببحر القلزم مارا إلى سواحل اليمن كلها إلى بحر فارس إلى منقطعه ، مارا إلى الفرات ثم على ضفة الفرات إلى منقطع الشام إلى بحر القلزم ، وفى هذه الجزيرة من المدن والقرى ما لا يعرف عدده إلا الله كاليمن والبحرين وعمان ونجد وجبلى طى وريبة وقضاة والطائف ومكة ، كلهم قد أسلموا وبنوا المساجد ، ليس منها مدينة ولا قرية ولا حلة لأعراب إلا قد قرئ فيها القرآن فى الصلوات وعلمه الصبيان والرجال والنساء وكتب " ، ثم قال بعد ذلك : " ثم مات أبو بكر وولى عمر ، ففتحت الفرس طولا وعرضا ، وفتحت الشام كلها والجزيرة ومصر كلها لم يبق بلد إلا وبنيت فيه المساجد ، ونسخت فيه المصاحف وقرأ الأئمة القرآن ، وعلمه الصبيان فى المكاتب شرقا وغربا " . (٤٣)

وقد وجدت مدارس خاصة بتعليم كبار السن ، يحكى ابن بطوطة عنها فيقول : " ومن أرباض دمشق ربض الصالحية ، وهى مدينة عظيمة ... بها مدرسة تعرف بمدرسة إبن عمر موقوفة على من أراد أن يتعلم القرآن من الشيوخ والكهول ، وتجرى لهم لمن يعلمهم كفايتهم من المآكل والملابس وبداخل البلد أيضا ، مدرسة مثل هذه تعرف بمدرسة منجا " . (٤٤)

وسواء وجدت للكبار مدارس خاصة بهم أو مكاتب شاركوا الصغار فيها ، فإن هؤلاء الكبار لم يهملوا فى أمر تعليمهم ، وبالذات فى مجال تنقيفهم أو

تفقيهم فى أمور الدين وحفظ القرآن كان فى مركز هذا للتعليم أو التنقيف وكان هذا الحفظ يتطلب فى معظم الأحوال معرفة القراءة والكتابة .

وكان نجم الدين محمد الطنبدى محتسب القاهرة صاحب مبادرة ثقافية حين قرر أن يوزع فى سنة ٧٩٠ هـ فقراء الفقهاء على الباعة بسائر الأوق لتعليمهم القرآن وما يلزم فى الصلاة وقدر لكل معلم على كل خانة فمسين فى اليوم .

هذا الحماس الذى وجدناه عند بعض المسئولين لتعليم للكبار يقابله حماس مماثل عند بعض الأفراد مدفوعين بقيم دينية للتعلم ، ولم يمنعهم كبر السن أن يبدأوا التعلم وأن يستمروا فيه ، فهذا هو ابن اينال م / ٣٧٦ هـ - سمع - كما قال الذهبى - وتعلم الخط وهو كبير ، ورزقه الله من المعرفة والفهم شيئا كثيرا . (٤٥) .

ولقد كان المسجد فى صدر الإسلام هو المكان الذى يتخرج منه الفقهاء والعلماء والقادة الصالحون فى شتى المجالات . كانت المدرسة التى تربي الرجال ، وكان المركز الذى تدور حوله حياة للمجتمع وعلى نور رسالته تسيير خطى الحياة فى المجتمع (٤٦) . كان بحق كما قال الله تعالى : ﴿ فِي بُيُوتِ الَّذِينَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (سورة النور ، الآيات ٣٦-٣٨) .

ومن المهم أن نشير أن المساجد عندما اتخذت معاهد للعلم ، فقد ضمن ذلك كفاءة العلماء من ناحية وحرية أهل العلم من ناحية أخرى ، فقد أصبحوا بهذا فى امتحان أو محنة يوما بعد يوم ، ومن المؤكد أنه لو كانت الأمة تركت

العلم لرجال الدولة ، لما ظل العلم فى بلاد الإسلام دائما فى ذلك المستوى الرفيع ، فقد كان على العلماء أن يواصلوا الدرس ليحافظوا على مكانتهم أمام الناس الذين يستمعون إلى دروسهم . ولو تبنت الدولة العلم لفرضت على الناس - إذا شاعت - الأدعياء والدخلاء وأفسدت بذلك العلم ، ولو قعد العلماء للتدريس فى دور بنتها لهم الدولة وتفاضوا أرزاقهم منها لأصبحوا فى عداد خدامها وحواشيها . (٤٧)

فهذه هى القيمة الحضارية الحققة لكون التعليم فى المساجد قد كان جهدا شعبيا وليس حكوميا ، وكان التمويل ( خاصا ) عن طريق الأوقاف وليس من بيت المال ، فسارت حركة الحضارة فى ترقق ونمو وازدهار حتى فى تلك الفترات التى شهدنا فيها أحيانا - بذور صراع فى السلطة السياسية ، أو مظاهر فساد - فى أحيان أخرى .

## حركة الترجمة

وكان تأسيس دار الحكمة على يد المأمون ( ٢١٧هـ - ٨٣٢م ) تعبيراً ثقافياً عفويا عن استحالة الاستعصاء على المؤثرات الثقافية غير الإسلامية التى وجد المسلمون أنفسهم وجها لوجه معها دون سابق تخطيط اجتماعى . لقد وضعت دار الحكمة ، بين أيدي المفكرين المسلمين كل التراث الهلنيسى الكلاسيكى الذى جلبه معهم العلماء الوثنيون الهاربون من اضطهاد الإمبراطور جوستيان فى القسطنطينية والذين هاجروا بعلومهم ومعارفهم إلى سوريا والعراق وإيران خصوصا إلى مدارس أديسا Edossa ونصيبين Nissibin وجنديسابور عندما امتد الإسلام فى القرنين السابع والثامن إلى هذه البلدان اتصل اتصالا مباشرا بهذا الميراث الوثي المادى ووجد بعض المسلمين فيه جدة وجاذبية ، ولم يمض وقت طويل حتى أصبح القرن التاسع الميلادى (

القرن الثالث - للربيع الهجرى ) عصر الترجمة من الفلسفة الإغريقية وكتب  
الطب والرياضيات والعلوم الأخرى إلى العربية . (٤٨)

ولم يقتصر عمل دار الحكمة على الترجمة ، فقد ألحقت بها مكتبة واسعة  
للمخطوطات وعدد كبير من الاختصاصيين الأكفاء ليقوموا بترجمتها وأنشئ  
إلى جانبها مرصد فلكى ، وإلى جانب المرصد مدرسة لتدريس الفلك . ومع  
وجود المكتبة والطماء الباحثين ومدرسة للفلك والأوقاف التى تيسر تمويل هذه  
المؤسسات ، غدا من المتعذر ألا تجتذب ( دار الحكمة ) الطلاب إليها ، وهكذا  
أصبحت نوعا جديدا من معاهد البحث والدراسة العليا ، أو بعبارة أخرى،  
أكاديمية. كذلك لم يقف أثر دار الحكمة على الترجمة فقط ، فصرعان ما أعقب  
عصر الترجمة عصر آخر كان عصر إنتاج وابتكار أثبت المسلمون فيه أنهم لم  
يكتفوا باقتباس تراث فارس القديم وتراث اليونان وهضمه ، بل حولوا التراثين  
لحاجتهم الخاصة وطرق تفكيرهم وأضافوا إليها ما استطاعوا أن يستنبطوه ،  
وقد ظهرت مآثرهم فى الطب والفلسفة ، ولكنها تجلت بنوع خاص فى الكيمياء  
والفلك والرياضيات والجغرافيا - بل لقد تفردوا عربا ومسلمين بمذاهب فى  
البحث والابتكار فى ميادين الشريعة وعلوم الدين وفقه اللغة وعلومها . (٤٩)

ولم تكن دار الحكمة وحدها مركزا للترجمة والنقل ، وإنما شارك فى ذلك  
أفراد آخرون وعائلات ومراكز تضافرت جهودها جميعا فى هذا الشأن وهكذا .  
وكان لحركة الترجمة حركات عدة من حيث الموقف الحضارى يمكن أن  
نذكر منها :

أ- اتساع الحضارة الإسلامية بما نخل عليها من ثقافات الأمم ومناحى  
تفكيرها .

ب- اطلاع المسلمين على علوم كانوا فى حاجة إليها كالرياضيات والطب .

ج- إتاحة فرصة مبكرة للمسلمين مكنتهم من أن يؤدوا رسالتهم فى تطور الحضارة الإنسانية . إن المسلمين لم يكونوا يعرفون لغات أجنبية ، فلو لم ينقل القلة من غير المسلمين لهم علوم الهند والفرس واليونان ( برغم ما كان فى هذا النقل من الأخطاء والمساوئ ) لما استطاع المسلمون أن يجيلوا عبقريتهم فى هذه العلوم ويزيدوا فيها ويجعلوا منها نعمة على البشر كلهم . ولو أن المسلمين انتظروا حتى يتعلموا اللغات الأجنبية ويقوموا هم أنفسهم بالنقل ( تلافيا للأخطاء التى جاء بها النقلة عفوا أو عمدا ) لمر قرن كامل على الأقل قبل أن يستطيعوا ذلك ، ولجاز أن يفقد المسلمون - فى أثناء ذلك - رغبتهم فى العلم أو أن تضطرب أحوالهم المعيشية ( فى السياسة والإقتصاد والإجتماع والفكر ) أو أن يضيع ما كان قد بقى إلى أيامهم من كتب العلم .

د- ارتقاء الحضارة الإسلامية ، بما كانت قد استفادته من فنون المعرفة ( فى الحياة العملية وفى البناء وأسباب العيش ، وفى الزراعة والصناعة والأشعار والتطبيب ... الخ .

هـ- اتساع اللغة العربية بالمصطلحات العلمية والتعابير الفلسفية مما دل أيضا على قدرة اللغة العربية على مجازاة الحركة العلمية ، كما جاءت الحركات الأدبية والدينية والإجتماعية .

و- تطور الأدب العربى من ناحيتين : بما كان قد زاد فيه من الفنون والخصائص والمعانى بالاطلاع على الحياة والفكر عند الأمم ، ثم بتسرب عدد من المدارك والتعابير الفلسفية تسربا طبيعيا أو تملحا من الأبناء أنفسهم ( فى النثر والشعر ) .

ز - الاستفادة من المقاييس والمدارك الأجنبية فى معالجة عدد من العلوم الشرعية واللغوية فى التعريف والتقسيم والمنهج المنطقى والبراهين . (٥٠)

## التغيرات الحضارية العالمية ودور تعليم الكبار من منظور إسلامى فى توجيه هذا التغيير

ملاح عامة لأهم التغيرات :

إنه لمن أكثر المهام صعوبة فى هذا الشأن أن نحاول هنا رصد الملاح العامة لأهم التغيرات الحضارية العالمية لمببين :

أولهما : أن هذا موضوع يحتاج إلى كتب عدة لا إلى صفحات لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة .

ثانيهما : أن للحديث فى هذا الموضوع ليس جديدا ، فهو مطروق بكثرة ملحوظة ، ولعل " التمثيل " يمكن أن يحل لنا المشكلة الأولى ، كما أن " الإيجاز " فى حد ذاته يمكن أن يتفادى الصعوبة الثانية

فماذا يمكن رصده من هذه التغيرات ؟

- لعل حقيقة التغيير نفسها هى التى يمكن أن نقف فى المقدمة ، إلى الدرجة التى يمكن عندها للمتحدث أو الكاتب أن يكتبى بها شرحا وتحليلا ليغنى السامع أو القارئ عن أى حديث آخر . والتغيير الحادث هو فريد فى ( مداه ) وفى ( نوعه ) وفى مجاله ..

\* فريد فى مده من حيث سرعة الإيقاع إلى الدرجة التى أصبح مقياسه اليوم لا يكون بالقرون ولا بالعقود ، وإنما بالسنين وربما بالأشهر أو بالأسابيع والأيام .

\* وهو فريد فى (نوعه) من حيث أنه لم يعد يتناول الجزئيات والمظاهر الخارجية وسائر ما يقع فى دائرة ( الكم ) وإنما أصبح يتناول الجذور والأصول دون أن يقف عند الفروع .

\* وهو فريد فى مجاله لأن السدود والحواجز أمامه تنكسر اليوم بسرعة ليقتم كافة المجالات ، فلا نراه فقط فى المجال السياسى على سبيل المثال أو الاجتماعى وإنما نراه - بالإضافة إلى هذا وذاك - فى سائر المجالات الأدبية والفنية والإقتصادية حتى يمكننا القول بأنه من العسير أن يزعم أحد أن هناك مجالاً لم يصبه تغير .

- وإذا كانت حقيقة عصرنا الحاضر هى ( التغير ) فبسبب هذا الإنتشار الواضح للعلم مادة وطريقة .

فكلمة العلم نفسها تقتزن فى بعض الأذهان بمجموعة بعينها من الأنساق المعرفية مثل " الفيزياء " و " الكيمياء " و " الرياضيات " ، أما ما عداه فلم يكن ينظر إليها على أنها (علوم) . بل إننا فى نظمنا التعليمية نقع فى أسر هذا المعنى عندما نشعب طلاب التعليم الثانوى العام إلى ( علمى ) و ( ألبى ) مثبتين بذلك صفة العلمية لعدد معين من المعارف دون غيره . وما هكذا الواقع الحادث الآن !

لقد اكتسح تيار ( العلمية ) معظم الآفاق المعرفية حتى هذه الآفاق التى ما كان يخطر لأحد أن تكون كذلك مثل ( الأدب ) و ( الفن ) فالنقد الألبى - مثلاً

- أصبح ( علما ) بفضل ما تم التوصل اليه من معايير منهجية للضبط الدقيق والتقييم الموضوعى . ونفس الشئ فى بعض مجالات الفن .

كانت التربية جملة من النصائح والتوجيهات وقائمة من الوعظ يصل إليها الكبار نتيجة ( خبرة ) ، فأصبحت اليوم مجموعة كبيرة من ( العلوم ) : علوم المناهج وطرق التدريس بمختلف فروعها - التربية المقارنة - الإدارة التعليمية - التخطيط التربوى - اقتصاديات التعليم .. الخ . وكان المعول فى ذلك كله اصطناع العلم - منهجا - وطريقة للتفكير لا تنحصر فى المعامل وأجهزتها وأدواتها .

- وارتبط بهذا التقدم العلمى هذا التدفق المذهل من المعلومات إلى الدرجة التى يشار فيها الآن إلى أن كمية المعلومات المنتجة خلال العشر سنوات المنصرمة مباشرة يمكن أن تساوى كمية المعلومات التى أنتجت خلال عدة قرون كاملة من قرون الماضى .

ولقد بلغ تفجر المعلومات حدا عجزت فيه أرفف المكتبات عن أن تستوعبها مساحة ومكانا ، وإذا بالعلم يصل إلى أشكال لتخزين المعلومات التى تعد بالملايين فى أحجام ومساحات أصغر مما نتصور !

وإذا كان تفجر المعلومات يسير أفقيا بإضافة أراض جديدة كل يوم ، فهو كذلك يسير ( رأسيا ) بهذا الإنشطار المتتالى لكل نسق من الأنساق المعرفية المعروفة . كان من الممكن أن نشير إلى واحد لنقول أنه متخصص فى ( التربية وعلم النفس ) ثم إذا بنا نجد تلك مستحيلا ، فأصبحنا نقول بأن هذا متخصص فى ( التربية ) أو ( علم النفس ) ثم إذا بنا أيضا نجد ذلك قد أصبح مستحيلا ، فإذا بنا نقول هذا متخصص فى ( المناهج ) أو ( أصول التربية ) أو

التربية المقارنة ) ، وهكذا يتوالى الانتشار المعرفى بهذا التدفق المستمر التوالى للمعلومات .

- وإذا كانت هناك مراكز بعينها تتدفق منها المعلومات المتقدمة فى جملة البلدان ذات الدرجة العالية من التطور الحضارى ، فقد كان يمكن أن يؤدى هذا إلى ( أرسقراطية معرفية ) تجعل المعلومات حكرا لمجتمعات هذه البلدان .. لكن طوفان ( التغيير ) نفسه أصاب أدوات ووسائل الاتصال بحيث أصبح ما يتم الكشف عنه فى إحدى المدن الأمريكية مثلا يمكن أن تصل أخباره إلى سائر أنحاء العالم فى دقائق معدودة . وهذا " الاتصال " السريع جعل احتكار المعرفة أمرا عسيرا ، والعكس الآن هو الحادث : أن المعلومات قد أصبحت ( ديمقراطية ) ، أى متاحة لكل من يستطيع استيعابها بغير حدود .

ولا تقف المسألة عند حدود ( توصيل ) المعلومات ، وإنما بالتبعية امتدت لتشكّل البشر أنفسهم من حيث سهولة وسرعة انتقالهم من مكان إلى آخر مهما تباعدت المسافات ، وكفى الإشارة إلى سفن الفضاء وللتأكيد على أن ( الأرض ) جميعا لم تعد ( مشكلة ) من حيث المسافات فلقد اختزلت كلها لتصبح أحد الأمكنة التى سعى الإنسان لأن ينتقل منها إلى كوكب آخر !؟

- ومن أهم الملامح التى لا بد أن يشار إليها هنا فى مظاهر التغيير الحضارى هو الحاجة التى برزت لأن يتوافر لهذه المظاهر عناصر ثلاثة هامة الدقة ، والسرعة ، والكثرة .

• دقة رؤية الإنسان - مثلا - لتركيّب خلايا الجسم مما كان يستحيل بالاعتماد على النظر المجرد وحده .

• وسرعة الاتصال بين مراكز الإنتاج ومراكز الاستهلاك فى مظاهر التجارة والصناعة والزراعة ، مما كان يستحيل بالاعتماد على وسائل النقل ( الطبيعية ) .

• وكثرة الإنتاج حتى يمكن أن يشبع حاجات الملايين من البشر ، مما كان يستحيل لو استمر الإنتاج باليد كما كان قديما ..

وهكذا برزت ( التكنولوجيا ) لتكون ( ساحر العصر ) إذا صح هذا التعبير فتمكن الإنسان من أن يرى ما لا يراه أحد وأن يسمع ما لا يسمعه أحد وأن يشم ما لا يشمه أحد .. الخ ، وبهذا أصبح الإنسان هذا الكائن الحى الذى كان يبدو ضئيل الجسم أمام كائنات حية أخرى ضخمة محدود القدرة ، يملك من الجبروت ومظاهر القوة ما جعله ماردا جبارا أصبح قاب قوسين أو أدنى من أن يكون بالفعل سيد هذا الكون !

- وكان من شأن هذه التغيرات التى أشرنا إليها - وهناك غيرها مما يجرى مجراها - أن تيسر سبل الحياة ، فتقهر المرض إلى حد كبير وتحسن من أنواع الغذاء وتسهم فى أن توفر للإنسان ماء نقياً وتبعد عنه مصادر العدوى والاعتداء الوحشى من قبل الحيوانات المفترسة والحشرات الضارة ، وكان من شأن هذا وذاك أن يمتد بالمساحة السكانية من أطرافها فى بدايتها بتقليل وفيات الأطفال وفى نهايتها بتزايد فرص امتداد العمر .

وكان من شأن هذا وذاك أن ( يكثر ) من أعداد السكان لتعود هذه الكثرة نفسها التى هى نتيجة التقدم الحضارى - لتشكل عبئا عليه وعبءة أمام مسيرته بما تفرزه من مشكلات وخاصة فى تلك المجتمعات التى تقف معدلات التنمية فيها عاجزة عن ملاحقة معدلات التزايد (السكانى) وهذا ما نراه واضحا فى الكثرة الغالبة من البلدان العربية .

- من سنن الله في كونه أن لكل فعل رد فعل مساوئ له في القوة ومضاد في الاتجاه ، فلقد غلب ( التوجيه المادى ) كثرة من مظاهر التغير الحضارى من حيث الفلسفة والغاية والمسار ، واستطاع الإنسان بالفعل أن يحصل على ثمرات وإنجازات تحيط به من كل مكان : شكلا مريحا ... الخ ، لكنه مع ذلك شعر بأنه لم يشبع الإشباع الذى يجعله بالفعل مطمئن القلب، هائئ البال ، لا تطارده وحوش القلق والانفعال واللهث الذى لا ينقطع سعيا وراء الكسب .

وهكذا أخذ الإنسان المعاصر - فى خضم هذا التقدم العلمى التكنولوجى - يبحث عن الحقيقة الأزلية موقنا بأن وراء هذا المحسوس خالقا أحد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد .. طريقه هو طريق سعادة الإنسان ، ونهجه هو الطريق المستقيم . واندفعت الملايين من إغفاءة التقدم المادى لتصحو متجهة بقلوبها وعقولها إلى ( الدين ) تلتمس فيه الرجاء .. وإذا بهذه الصحوة الدينية تغزو مختلف أنحاء العالم ... مسلما أو مسيحيا أو يهوديا .. ربما كان أوضح فى البقاع الإسلامية بحكم أنها كانت أكثر تعرضا للتخلف والإستغلال والقهر .

- وكان من نتيجة كثير من المتغيرات السابقة أن يرافقها تغير آخر هام ، بدونها كان يمكن لثلاثة أرباع البشرية أن تحرم من ثمراته وإنجازاته .. إنها رياح التحرير والمد الديمقراطى .. رياح التحرير التى تمثلت فى العديد من المؤثرات التى استهدفت فك القيود التى كبل بها الاستعمار شعوب كثير من مناطق العالم ، ثم الاندفاع بكل الطاقة أن تكون السلطة بالمشاركة وليست بالاحتكار وبأن تتاح فرص التعبير عن الرأى بغير خوف من قهر القاهرين وسياط الجلادين ، ما دام السبيل بعيدا عن العنف ، مستخدما الكلمة والفكرة المستندة إلى الدليل والحجة .

وإذا كان التغير الحضارى من نتائجه ، هذا المد الديمقراطى ، وتلك الموجه التحريرية، فإنهما كذلك كانا من أسباب دفعه مزيدا إلى أمام وتلك

بإضافة عقول عديدة تشارك بالرأى والفكرة والإنتاج ، وبتوسيع قاعدة الاستفادة ليعم خير التغيير أكبر قدر من الجماهير .

- ولقد عودنا التاريخ البشرى عبر العديد من للقرون وفى ظل كثير من الحضارات أن يكون هناك - غالبا - تناقض وصراع بين قوتين أو أكثر ، وأبرز ما شهدناه ذلك الصراع القديم بين الحضارة للرومانية والحضارة الفارسية ، ثم ما شهدناه فى العصر الحديث بين إنجلترا وفرنسا ، ثم بين هاتين وقوى أخرى وبين ألمانيا ثم بين الدول الرأسمالية الغربية بزعامة للولايات المتحدة والدول الاشتراكية بزعامة للإتحاد السوفيتى (قبل سقوطها) .

هذه الصورة الأخيرة من صور الصراع ، انفردت بون غيرها من صور الصراع التاريخى ، بأن حسمت بون أن تطلق رصاصة واحدة ! إنه منطق التغيير الحضارى المعاصر الذى يتوسل بسلاح الجودة وحجية للفكرة ، وهكذا انهارت منظومة الدول الاشتراكية ليصبح العالم أمام قطب واحد يكاد ينحصر فى الولايات المتحدة الأمريكية .

إن هذه الحالة من الاستقطاب ، لابد أن تكون لها تداعياتها الحضارية مما يصعب التنبؤ به الآن ، لأن العالم ما زال يعيش مخاض نظام عالمى جديد لا يدرى هل سيسير بالفعل تحت مظلة قوة واحدة ، أم ستبرز قوى أخرى جديدة منافسة ؟

وبانتهاء المواجهة بين منظومة الدول الاشتراكية ومنظومة الدول الرأسمالية تنحسر الكثير من موجبات للصراع المسلح ، وتقل إلى حد كبير فرص الحرب الكونية لتظل تباشير سلام ، لا يعنى لنتهاء (الصراع) فالصراع سنة اجتماعية ، وإنما - ربما - ستبرز نوعية جديدة من الأسلحة ، ليست هى بالضرورة القنبلة والمدفع وقاذفات القنابل والبارود ، وإنما هى من

نوع الأسلحة التى هزمت مجموعة دول المنظومة الاشتراكية .. تنافس علمى ، صراع أفكار ، تنافس بين النظم الإجتماعية ... صراع بين صناعات ، بين منجزات علمية وتكنولوجية .. وهكذا .

لكن تظل دول العالم النامى مستمرة كساحة صراع مسلح - حتى الآن - بين بعضها البعض أحيانا ، بدوافع مختلفة ، ومدفوعة من قبل قوى كبرى أحيانا أخرى ، وهكذا تحت رايات السلام التى بدأت تتزايد ، بتزايد عدد القتلى من أبناء الدول النامية !

### لماذا تعليم الكبار لمواجهة التغيير الحضارى ؟

هذا الإلحاح المتواصل عبر البحوث والدراسات ، ومن خلال الكتب ، وداخل أروقة المؤتمرات واللجان والندوات على ضرورة تعليم الكبار حتى يمكن مواجهة التغيير الحضارى، هل يستند بالفعل إلى " منطق " ويقوم على " حجية " ؟

ذلك هو ما نحاول أن نبينه من خلال الفقرات التالية :-

- فأى تغيير فى أى شأن من الشئون لابد أن يكون بموافقة أولى الأمر فيه وأولوا الأمر دائما يكونون من الكبار ، فكيف يمكن لفاقد الشئ أن يعطيه ؟ كيف يمكن أن يسهم أصحاب السلطة ومالكو القرار فى كل موقع فى التغيير ، إذا افتقدوا البصر بدواعى التغيير وغفلوا عن سبل التغيير وطرقه وغابت عنهم أهم مجالاته وقواعده وأدوات إحداثه ؟ إنهم يستطيعون أن يتلافوا هذا بالقدر الذى يحصلون فيه على تعليم فعال - والكبار لا يتولون فقط " مسئوليات " وإنما هم أيضا يمتلكون ذلك العنصر الذى يعد طاقة أساسية فى عمليات التغيير ، ألا وهو عنصر ( التمويل ) بحكم امتلاكهم للمال والذى بدونه يمكن أن تتحطم جهود التغيير أو تنحرف عن المسار .

وإذا كان من الممكن الحصول على المال بالمطالبة والإحاح وبذل الجهد من أجل الإقناع بضرورة التغيير وأهميته ، إلا أن " تعلم للكبار " يزيد من فرص أن يقوموا هم بالمبادرة دون انتظار للمطالبة .

- وإذا كان جمهور معاهد التعليم المختلفة هم عادة من ( الصغار ) الذين نعدمهم كى يتولوا فيما بعد مهام العمل فى مجالات الخدمة والانتاج ، وبالتالي فهم وقود وأوتات التغيير الأساسية ، إلا أن وقوعهم فى أيدي كبار جهلة ، ووقوفهم تحت مظلة عقلية متخلفة ، يمكن أن (يفشل ) من الجهود الضخمة المبذولة لتعليم الصغار ، سواء بالتقاعس عن تعليمهم أو لقطاع الحماس اللازم لاستمرار التعليم أو سوء التوجيه والإرشاد لهؤلاء الصغار .

- ومن العسير أن نتصور إمكان أن يكون هناك مجتمع يجذّ على طريق التغيير بأن يكتفى بوجود قطاعات من أهله هم وحدهم للمتعلمون ، فالمجتمع جسم واحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .. إذا ظل قطاع منه على حالة الجهل ، فإن هذا من شأنه أن يبيث غازات جهل سامة تميت أو تشل بعض الجهود .

إن للتقدم جدار صاعد يحول بين المجتمع وبين شرور الجهل وسمومه واستمرار جهل الكبار ، إنما يترك فى هذا الجدار ثغرة خطيرة تضيع على الأمة الكثير مما تبذله من جهد التغيير .

- ودون أن نعى المساس بالقيمة الإنسانية للكبار ، فإننا لا نستطيع أن ننسى أن كثيرا من عوائق التغيير ، إنما تأتى نتيجة وجود قوى للمقاومة .. قوى تركزن إلى المألوف وتأنس بسجن العادة وتستطير من التجديد ، وأن جمهور هذه القوى عادة ما يكون من جيل الكبار بحكم انتمائهم إلى عهود سبقت . ولا شك أن قوة المعارضة والمقاومة تكون أشد عندما يتخلف هؤلاء عن ركب التعليم ،

لما هو معروف عن التعليم من حيث جعله العقل مرنا والأفق متسعا مما هو ضرورى لتقبل التغيير فضلا عن المشاركة فيه .

- والكبار - غالبا - هم أمام الصغار مثل ونماذج يقتدى بها ، ولنتصور إنسانا فاقد البصر يقود مركبة ؟ إننا بتعليم الكبار إنما نوفر مثلا ونماذج جيدة يستطيع الصغار أن يطمئنوا للسير وراءها، وهم بعد فى مرحلة الطلب والاعتماد على الكبار نون أن تعنى القدوة هنا ضرورة أن ينسج الصغير دائما على منوالها ويقتضى أثرها ، وإنما - على الأقل - تهديه سواء السبيل.

- والكبار باعتبارهم آباء وأمهات ، فإن تعلمهم يحثهم أكثر على أن يدفعوا بأبنائهم إلى أقصى ما يستطيعون على طريق التعلم ، مما يعنى مزيدا من طاقة التغيير ، وفقا للقاعدة المعروفة من أن الآباء والأمهات يسعون دائما لأن يكون أبنائهم أفضل منهم ، فإذا كان الأب أميا ، فلربما يقف مستوى طموحه عند حد أن يعرف ابنه القراءة والكتابة أو أن يحصل على مؤهل أعلى أو متوسط .

- والكبار الذين فاتهم قطار التعليم إنما هم فى الوقت نفسه على قدر متقدم من النضج ومن الخبرة ، وهذا وذلك من شأنه أن يجعل تعليمهم ذا فاعلية أكثر وتتأتى له هذه الفاعلية بمقدار ما يتوافر له من دافعية ذاتية للحصول عليه ، وبما يتوافر له من فرص الالتحام بخبرات العمل والممارسة الواقعية ، وكذلك بما يتوافر له من فرص الوعى والفهم .

- وإذا كان الكم الأكبر من الكبار من العاملين فى قطاعات الخدمة والإنتاج فإن دراسات كثيرة يصعب حصرها قد أثبتت أن هناك زيادات ملموسة فى عوائد العمل عندما يستجد عليه عامل التعليم ، ومن ثم تتسارع معدلات

التنمية ، وهى - كما نعلم - المولد الحقيقى لاحتياجات التغيير ، وهى فى نفس الوقت مجاله الأساسى ، وهدفه الأهم .

- وليست المسألة مسألة حسن تربية أبناء فقط ، ولا هى مساهمة فى التنمية ، مع التسليم بخطورة وأهمية هذا وذاك ، وإنما مما لا يقل عن هذا أهمية الحاجة إلى ترشيد السلوك الاجتماعى العام فى مختلف مجالاته ومختلف مواقعه .

- وأخيرا فإن ما يتوج كل هذا أن يمارس الكبير حقه كإنسان أولا وكمواطن فى دولة نامية ، فحقه كإنسان يحتم على المجتمع أن يكون متمتعاً بحق التعليم الذى هو مدخل لحسن التمتع بحقوق كثيرة . وحقه كمواطن فى دولة يحتم على الدولة أن تمد مظلة تكافؤ الفرص كى تشمل الجميع، صغارا وكبارا .

### المنظور الإسلامى لدور تعظيم الكبار :

مع أن الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا بأنه خلق فى النفس البشرية طبيعة الإحساس بالخير والشر ، كما يقول تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ ( سورة الشمس : ٧ ، ٨ ) ، كما أشار سبحانه وتعالى إلى أنه قد زود الإنسان ببصيرة أخلاقية يستطيع بها التعرف على الخير والشر ، يقول تعالى : ﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ (سورة القيامة : ١٤ ، ١٥) ، كما وهب الله الإنسان العقل وجعله ميزته للكبرى التى استحق بها الخلافة عن الله عز وجل فى أرضه ، وبه حمل الأمانة التى أبت أن تحملها السموات والأرض والجبال. وقد قدر القرآن الكريم شأن العقل الإنسانى وأشد مكانته ونوه بوظيفته. مع كل هذه الامكانيات والاستعدادات التى زود الله عز وجل بها الإنسان ، لم يترك له حرية معرفة واجباته ومسئوليته وحده ، بل

الثابت أن كل المواهب والاستعدادات التي هيأها الله للإنسان ، ما هي إلا أسباب لحمله المسؤولية والتكليف ، بل يستحيل أن تكون مصدرا للإلزام وتكليف الإنسان ، لأن في طبيعة الإنسان ما لا يتلاءم مع ما يصدر منها من أمور تلزمه بها ، فالإزام الإنسان لا يكون إلا ممن خلقه وأنشأه وأبدعه " (٥١) .

وإذا كان لنا أن نؤكد أن هناك في الاسلام - عقيدة وحضارة - ما من شأنه أن (يُفَعَّل) دور تعليم الكبار في التغيير الحضارى ، إلا أنه من المهم جدا بالنسبة لنا أن نسجل الملاحظات التالية (٥٢) .

١- أنه ليس هناك شئ واحد اسمه الحل الإسلامى ، ولكن هناك حلولا عديدة تتبع من رؤية الاسلام وتصوره للكون والحياة ، وبالتالي فإن الحدود تتعدد بتعدد المشاكل، بمعنى أن رؤية الإسلام وموقفه هما العنصر الجامع ، أما الحلول المرتكزة على هذه الرؤية والناבעة منها ، فهي غير متناهية ، لأن وقائع الحياة والتعليم غير متناهية بطبيعة الحال .

٢- أن الحل الإسلامى لا يشترط فيه أن يكون منكورا فى الكتاب والسنة أو فى مدونات الفقه وكتب السلف ، لكنه يكتسب صفته تلك إذا لم يتعارض مع نص أو قيمة إسلامية، وإذا كان يحقق مصلحة موجوه لمجتمع المسلمين .

٣- أنه على تعدد الحلول الإسلامية لمختلف المشكلات الحضارية ، إلا أن هذه الحلول ليست لها صفة الثبات ، وإنما هي متغيرة بتغير الأزمنة والأمكنة والعوائد والأحوال ، إذا كان الأمر يتصل بالمعاملات لا العبادات ، وتعليم الكبار يقع فى هذا الباب .

٤- أن اختلاف الحل الإسلامى عن غيره ليس مطلوبا وضروريا ، إذ ليس مفترضا أن يكون الحل الإسلامى أمرا فريدا فى بابه ، فإذا حدث وانققت

القيم أو المصالح بين المسلمين وغيرهم ، وانتفتت للحلول التابعة من تلك القيم أو المنجزة لتلك المصالح ، فهذا يعنى أنها من السياسة الشرعية . (٥٢)

٥- أيا كان الحل أو مضمونه ، وعلى فرض تطابق القيم التى ينطلق منها أو يخدمها ذلك الحل ، فإن ( المصعب ) فى التصور الإسلامى يظل مختلفا غاية الاختلاف بمعنى، أن الحل الإسلامى تدور فيه الجزئيات حول محور الرسالة وخلافة الله فى الأرض المنوطة بالإنسان ، بحيث تصبح الحركة جزءا من نظام كلى يقوم على الوصل بين الدنيا والآخرة ، وبين الأرض والسماء وبين الإنسان والله .

٦- أن الحل الإسلامى ليس موجها إلى السلطة وحدها ومؤسستها ، ولكنه موجه أيضا إلى كافة المكلفين فى مجتمع المسلمين . (٥٣)

وبناء على هذا نستطيع أن نشير إلى عدد من ملامح هذا المنظور الإسلامى :

فالقضية الأساسية هنا هى : إرساء القاعدة المعرفية ، ذلك أن هذا المبدأ هو العامل الأول والفاعل الأساسى وراء عملية الانتقال بالجماعة العربية من حال ( الجاهلية ) وبداعتها إلى حال ( العلم ) وحضارته ، لأن هذا الموقف ، بسبب من ( ثباته ) ، وماله من ( قداسة ) ، لا تزال له الصلاحية ، اليوم وغدا ، لينتقل بالأمة من ( التخلف ) إلى ( التقدم ) ، ومن ( الركود ) إلى ( النهضة ) ، ومن ( الكسل العقلى ) إلى ( التوقد العقلانى ) ومن ( الخرافة الساذجة ) إلى ( الروح العلمية ) التى طبعت فكر الإسلام ونهج المسلمين الذين وعوا خصائص هذا الدين الحنيف . (٥٥)

فالعلم هو نور البصر والبصيرة ، بينما الجهل هو الظلمة ، بل والعمى :  
﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ نَمَّا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (سورة الرعد: ١٩)

وفى الحديث الشريف ، يقول صلى الله عليه وسلم " مثل العلماء فى الأرض كمثل النجوم فى السماء ، يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ، فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة " (رواه الأمام أحمد) .

والعلم - فى ( وجوبه ) وفى ( ضرورته ) يتعدى ضرورة ( الضوء ) و ( النور ) إلى حيث يراه الإسلام ( قوام الحياة ) . وإذا كان أدبنا التربوى الحديث قد ألف تشبيها للعلم ، فى الأهمية ، بالماء والهواء ، فإن مآثرات إسلامية قديمة تجعل حاجة الإنسان إليه مساوية لحاجته إلى الطعام والشراب ، فالحسن بن صالح يقول : " إن الناس يحتاجون إلى هذا العلم فى دينهم كما يحتاجون إلى الطعام والشراب فى دنياهم " (رواه الدارمى ) ، بل إن هذه المآثرات تجعل فى العلم ( الحياة ) وفى فقدانه ( الهلاك ) ! فلقد سأل هلال ابن خباب سعيد بن جبير (٤٥-٩٥هـ / ٦٦٥-٧١٤م) " يا عبد الله ، ما علامة هلاك الناس ؟ فأجاب : " إذا هلك علماؤهم " ١ (٥٦) .

- وتعليم الكبار إذا ترك للجهد التطوعى والعمل الفردى ، فلربما طال بنا الزمن حتى يؤتى أكله ، ومن هنا كان اتفاق كثيرين على ضرورة ( القرار السياسى ) ، الذى يجعل من هذه المسألة ( مسألة قومية ) ، تتضافر فيها الجهود وتستصدر لها التشريعات وترصد لها الأموال والميزانيات . إن هذا إن دل على شئ فإنما يدل على فاعلية وأهمية القيادة الرشيدة فى سياسة المجتمع وادارته ، ونستطيع أن نجد فى الفكر الإسلامى ما يشكل لنا ظهيرا لمساندة المبدأ القائل بأهمية القرار السياسى .

ومن هنا فلا ينبغي لنا أن نستغرب كثافة حجم الرسائل الموجهة إلى الحكام من جانب العلماء في ملفات الخطاب الإسلامي عبر عصوره المختلفة ، لأن الأمر يتجاوز كونه حلما يراود أهل كل زمان في صلاح أولى الأمر ، ويعبر عنه أهل الرأي بوسائل مختلفة ، لأنه من المنظور الإسلامي تكليف والتزام ، بمقتضاه يتعين على العلماء أن يتوجهوا إلى الحكام وأولى الأمر بالإرشاد والنصح ، التزاما بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . (٥٧)

ولأن إعلان الرأي والجهر به واجب إسلامي ، ثابت بنصوص القرآن والسنة ، فإن أهل العلم لم يتعاملوا معه باعتباره مجرد حق أو رخصة يخبرون بين فعلها أو تركها ، وإنما أدركوا وجه الالتزام فيه ، بحيث يأثم تاركه ويحاسب أمام الله على التفريط فيه .

من هنا حظت كتب التراث وأدبيات المسلمين بكم ملحوظ من رسائل العلماء إلى الحكام، التي تراوحت بين النصائح العامة والتوجيهات الخاصة ، وبين المصنفات والكتب، ومشهورة رسائل الامام والقاضي أبو يوسف إلى هارون الرشيد ، وجعفر الصادق وسفيان الثوري إلى أبي جعفر المنصور ، والإمام الغزالي إلى الوزير السلجوقي مجير الدين ..

ونخطئ خطأ كبيرا إذا تصورنا أن تعليم الكبار يمكن أن يكون أداة فاعلة لو تم على أيدي معلمين متخصصين فقط ، وإنما لابد وأن يكون المناخ العام محكوما بالتطور والتثاقف بحيث يصبح المجتمع كله متعلما مطما . إن طبيعة الاسلام تفرض على الأمة التي تعتقه أن تكون أمة معلمة ، ولا يقوم فيها المعلمون وحدهم بواجب التعليم ، وإنما يصبح كل مسئول عن موقع عمل مطما في دائرة هذا العمل .

إن التعلم والتعليم روح الإسلام ، لا بقاء لجوهره ولا كفالة لمستقبله إلا بهما ، والناس في نظر الإسلام أحد رجلين : إما متعلم يطلب الرشد ، وإما عالم يطلب المزيد ، وليس بعد ذلك من يؤبه له ، قال صلى الله عليه وسلم " العالم والمتعلم شريكان في الخير ، ولا خير في سائر الناس " (٥٨) .

إن الاكتفاء بتحصيل المعرفة إذا كانت له من قيمة ، إلا أن قيمته محصورة في شخصية العارف والدارس ، ولكن الإسلام يريد من كل مسلم أن يتعدى بما يحصل عليه من النفع إلى الغير كذلك ، ومن ثم يأتي التحريض دائما على ( التعليم ) فقد حدث حميد بن هلال ، قال : قال أبو رفاعة : " انتهيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يخطب ، فقال ، فقلت : يا رسول الله ، رجل غريب يسأل عن دينه لا يدري ما دينه ، قال : فأقبل على رسول الله وترك خطبته حتى انتهى إلى فأتى بكرسى حسبت قوائمه حديد له ، قال : فقعده عليه رسول الله ، وجعل يعلمني مما علمه الله ، ثم أتى خطبته ، فأتم آخرها " (صحيح مسلم ، ج٦ ، ص١٦٥) .

- وحتى يستطيع تعليم الكبار أن يقوم بدوره في مواجهة التغيير الحضارى ، فإنه يحتاج إلى ( روح تجديدية ) لا تحبسه في صيغ تقليدية كتلك التي نراها في تعليم الصغار ولا تنقيد بطرق تعليم تقوم على الحفظ والاستظهار ، وتفتح الباب واسعا لأنماط جديدة من الإدارة التربوية تتسم بالمرونة وتشجيع المبادرات الفردية وتسعى إلى إيجاد أشكال جديدة من المنهج تتسع باتساع خبرة الحياة ، ... إلى غير هذا وذاك من صور التجديد التربوى .

وإن لما يمد لعقل بطاقات التجديد ، ذلك التمييز الواضح الذى أبرزه لنا الفكر الإسلامى بين أمور ( الدين ) التى علينا أن نلتزم بما جاء بشأنها وبين أمور ( الدنيا ) التى للعقل أن يُعمل فيها فكره ابتكارا وتجديدا ، فلكذلك علمنا الرسول صلى الله عليه وسلم أن ما كان ( دينا ) ، فمرجعه الوحي ، والتزويل ،

لأن فيه من ( الغيب ) ما لا تدرکه العقول الإنسانية بذواتها ومع استقلالها بالنظر، أما ما كان ( دنيا ) ، فالمرجع فيها هو العقل والتجربة الإنسانية المحكومان ( بالمصلحة ، فى إطار کلیات للشریعة والدين ) . ولذلك جاء علماء الأصول ، الذين فقهوا السنة ووعوها ، فقصموها إلى ( سنة تشريعية )، هى التى تعلقت ( بالدين ) ، مثل تفسير الوحي وتفصيله ، ومثل الفتيا فيما هو ( دين ) وإلى ( سنة غير تشريعية ) ، وهى كل ما يتعلق بأمر ( للدنيا ) ( ٥٩ ) .

ومن هنا امتلأ الفكر الإسلامى بالحلول والمبادئ التى لا تقف أمام الأحداث على كثرتها، وإن ما لا نجده فى مذهب نجده فى غيره ، وما يكون مضيقا فى واحد منها يكون قابلا للتغيير والتعديل فى غيرها ، كلما وجدت الحاجة إلى ذلك واقتضته المصلحة العامة التى لم تصابم نصا شرعيا ، وأن الأحكام المبنية على المصالح لم توضع لتكون أغلالا نرسف فى قيودها إلى يوم ( الدين ) بل إن الوقوف عندها لا يتفق وروح الإسلام .

- وإذا كان الجهد الحكومى من خلال مؤسسات التعليم للنظامى قد يضيق عن أن يتسع لجهود تعليم الكبار ، فإن هناك مؤسسة إسلامية هامة تستطيع أن تفعل الكثير فى هذا المجال التربوية الهام مما يجعل هذه المؤسسة قوة تغيير حضارى لا حدود لفعالها الإيجابية . إن هذه المؤسسة هى المسجد ..

هو بيت الله فى الأصل ، ولكن الخطاب للقرآنى يلحق لفظ الجلالة أحيانا لأحوال يكون فيها الشأن لكافة الناس ، فمال الله هو مال المسلمين ، وحكم الله هو ما يلتزم بشریعة الله حقا ، وعند الفقهاء ، فإن حقوق الله تتضمن كل ما يتعلق بمصالح وحقوق عامة الناس .. وهكذا .

وبالتالى ، فإن بيت الله هو فى حقيقته ( بيت الأمة ) .

ونحن إذا تدبرنا ما كان يقوم به المسجد النبوي في حياة الرسول صلى عليه وسلم لأدركنا هذه الحقيقة واضحة جلية .

من المسجد انطلقت أجهزة السلطة في طريق مرسوم ، رئيس دولة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتؤاخي بين المهاجرين والانصار ، ثم تعاهد اليهود وتشمل بسلطانها مناطق اليهود كافة ، وأصبح المسجد مكان تجمع العسكر ، فمنه تتابع خروج سرايا الدولة في كل الأنحاء .. وفي المسجد قامت إدارة مرافق الدولة ومنها : للتعليم والعدل وقسمة الأموال ، وتدريب للقادة المفكرين للأمة ، واجتماع الرسول بصحبه ، وفيهم ولاته وكتابه وأمرؤه ، وفي المسجد كانت لقاءاته مع الوفود وقيادة الأمة وإمامة الجماعات . (١٠)

- والمنظور الاسلامي لا يرى في تعليم الكبار مجرد عملية تعريف وتدريب على القراءة والكتابة وإنما عليه - ضمن ما هو مطلوب منه من متطلبات - أن يكون أداة تخلص للعقل من " المخلفات الفكرية " التي تجعل العقل أسيرا للخرافة ومقيدا " بالتقليد الأعمى " ، وهذه وتلك من سمات " التفكير الجاهلي "

إن الإسلام نعى على الجاهلية الأولى هذا اللون من الفكر ... الفكر الذي نبحت في نشأته فلا نجد له أصلا شريفا ، إنما هو التخمين غير المضبوط والتقليد والجمود . وتدبر قوله عز وجل يصف معالم للفكر الجاهلي : ﴿ وَجَٰطَلُوا لِمَلٰٓئِكَةِ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَادُ ٱلرَّحْمٰنِ ۗ إِنَّا نَشْعُرُهُمْ خٰلِقَهُمْ ۗ سَآءَ مَا يَكْتُمُونَ ۗ وَسَآءُ مَا يَسْأَلُونَ ۗ ﴾ (سورة الزخرف: ١٩).

إذا شهد الإنسان بعينه شيئا فأخبر بما شهد فلا ملام عليه ، لكن كيف يلقى أخبارا لم يشهدها ؟ إن إلقاء القول على عواهنه من مظاهر التفكير الجاهلي . (١١)

ومظهر ثان ينكشف لنا من قول الله بعد ذلك في سورة الزخرف (وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠) ) .  
الكذب والجهل والتخرص .. هو خباء ذا الادعاء على الله ، والله جل شأنه ما أرغمهم على شرك ولا أغراهم بافتراء !

ثم يطرد النظم القرآنى كاشفا عن مظهر ثالث للتفكير الجاهلى ، ويتساءل : من أين لهم أن يقولوا ما قالوا ما دامت الدلائل الحسية تنقصهم ؟ أنزل عليه الوحي ؟ ﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ (سورة الزخرف: ٢١) كلا إنه التقليد الأعمى ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ لُغَةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (سورة الزخرف ٢٢) .

وأخيرا تنتهى مجموعة الصفات التى تبرز فى التفكير الجاهلى بالوصف الأخير وهو الجمود وجدد الحق : ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ لُغَةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ قَالَ أُولَئِذٍ جِئْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (سورة الزخرف: ٢٣ ، ٢٤) .

- ويمثل " تمويل التعليم " مشكلة كبرى تحول بين كثير من الدول وبين ما نطمح إليه من بذل الجهد فى تعليم الكبار خاصة تلك الدول التى تقصر إمكاناتها المالية عن القيام بما تتطلبه هذه الجهود من صور انفاق . لكن الإسلام عقيدة وحضارة يقدم لنا سبلا هامة يمكن بها مواجهة هذه المشكلة بحيث لا تستطيع تكثير الجهود المبذولة لتعليم الكبار دون التفرّد بالقدرات المالية للدولة.

فمن الأحاديث النبوية المعروفة ، قوله صلى الله عليه وسلم : " إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له " .

ويؤكد كثير من المحللين أن التعليم مصرف من المصارف التي ينفق عليها مال المسلم كصدقة جارية وخاصة إذا جاء ذلك من خلال " مشروع " ، ذلك أن الصدقة الموجهة على سبيل الإحسان الفردي ، نفعها يقتصر على من يتلقاها ، ويكون مفعولها موقوتا كذلك ، أما الإنفاق على شئون التعليم عن طريق ( مشروع ) فهذا من شأنه أن يجعل الإنفاق " مستمرا " و " عاما " .

من أجل هذا اندفع كثير من الأغنياء إلى وقف جزء غير قليل من أموالهم الثابتة والمنقولة على مشروعات تعليمية كإنشاء المدارس ، مما وفر لها مصدرا دائما للتمويل . وفي تصورنا أن هذه التجربة يمكن أن تدرس ليستفاد منها في توفير مصادر تمويل لجهود تعليم الكبار .

## خاتمة

وهكذا رأينا كيف أن التغير الحضارى سنة من سنن الله فى خلقه يحتم العمل وفقها أن تشحذ طاقات المجتمع وقدرات الإنسان كى تميل مجموعة كبيرة من أفراد ( الكبار ) ممن لم تتح لهم فرص التعليم من قبل ، أو تكون قد أتاحت بدرجة غير كافية ، تحيلهم من ( كم ) يستهلك إلى ( نوع ) يضيف ويتيح بكفاءة واقتدار ، بجانب استهلاكه .

وإن الإسلام باعتباره الرسالة الخاتمة ، وباعتبار صلاحيته لكل زمان ومكان ، كان من الطبيعى أن يترك مسأحة كبيرة للاجتهد والتغيير من أجل الملاءمة للظروف المتبدلة .

وإن تعليم الكبار ( فريضة اسلامية ) تتيح لهذا النفر الهام من أفراد الأمة أن يقوم بمهمة التكليف التي من شأنها أن تجعل الإنسان جديرا بخلافة الله على الأرض بتجديدها وتعميرها وتتميتها .

## هوامش ومراجع

- ١- محمد جواد رضا : العرب والتربية والحضارة ، دراسة فى الفكر التربوى المقارن ، الكويت، مكتبة المنهل ، ١٩٧٩ ، ص ص ١٣-١٤
- ٢- الزمخشري : أبو القاسم محمود بن عمر : أساس البلاغة ، لقاهرة ، مطبعة محمد نديم ، ١٩٥٣ ، ج ٢ ، ص ١٣١ .
- ٣- المرجع السابق : ج ٣ ، ص ١٢١ .
- ٤- محيى الدين صابر : التغيير الحضارى وتنمية المجتمع ، سرس للبيان ( مصر ) ، مركز تنمية المجتمع فى العالم العربى ، ١٩٦٢ ، ص ٤٧ .
- ٥- الفيروز ابادى ، مجد الدين يعقوب الشيرازى : للقاموس المحيط ( القاهرة ، مطبعة بولاق ) ١٢٨٩هـ ، ج ٤ ، ص ٢٧٠ .
- ٦- محيى الدين صابر ، التغيير الاجتماعى وتنمية المجتمع ، ص ٤٩ .
- ٧- سيد قطب : الإسلام ومشكلات الحضارة ، لقاهرة دار الشروق ، ١٩٨٩ ، ص ١٧٣ .
- ٨- المرجع السابق ، ص ١٧٤ .
- ٩- المرجع السابق ، ص ١٧٥ .
- ١٠- عباس محمود العقاد : الإنسان فى القرآن الكريم، لقاهرة، دار المعارف، ١٩٦٩، ص ٥٨ .
- ١١- المرجع السابق : الصفحة نفسها .
- ١٢- يوسف القرضاوى: الخصائص العامة للإسلام، لقاهرة، مكتبة وهبة، ١٩٨٩، ص ٢٠٥، عن : إغائة للهبان، ج ١، ص ص ٣٤٦، ٣٤٩ .

- ١٣- المرجع السابق، ص ٢١٦.
- ١٤- المرجع السابق ، ص ٢١٧.
- ١٥- محمد مبارك: النظرة الإسلامية إلى الكون والإنسان والحياة فى :  
منظمة الندوة العالمية للشباب الإسلامى: الإسلام والحضارة ودور  
الشباب المسلم، الرياض، ١٩٨١، م١، ص ٢٥٦.
- ١٦- سعيد إسماعيل على: أصول التربية الإسلامية، القاهرة، دار الفكر  
العربى، ١٩٩٣، ص ٢٧.
- ١٧- محمد الغزالى: الإسلام والطاقات المعطلة، القاهرة، دار الكتب الحديثة،  
١٩٦٤، ص ٢٤.
- ١٨- المرجع السابق ، ص ٣٠.
- ١٩- فهمى هويدى: أزمة الوعى الدينى، صنعاء، دار الحكمة اليمانية،  
١٩٨٨، ص ٧٧.
- ٢٠- أبو حامد الغزالى: إحياء علوم الدين، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية،  
د.ت، ج٣، ص ٢٣٨.
- ٢١- المرجع السابق: ص ص ٢٤٢-٢٤٤.
- ٢٢- فهمى هويدى: أزمة الوعى الدينى، ص ٧٩.
- ٢٣- محمد البهى: منهج القرآن فى تطوير المجتمع، القاهرة من مكتبة وهبة،  
١٩٧٩، ص ٩.
- ٢٤- المرجع السابق، ص ١٠.
- ٢٥- سعيد إسماعيل على: الأصول الإسلامية للتربية ، القاهرة، دار الفكر  
العربى، ١٩٩٢، ص ١٥١.

- ٢٦- محمد محمد أبو شهبة: المدخل لدراسة القرآن الكريم (بدون ناشر أو مطبعة أو تاريخ)، ط٢، ص ٧٢.
- ٢٧- المرجع السابق: ص ٧٤.
- ٢٨- سعيد إسماعيل على: رؤية إسلامية لقضايا تربوية، القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٩٣، ص ١٠٨.
- ٢٩- محمد رشيد رضا: تفسير المنار، القاهرة، الهيئة المصرية العام للكتاب، ج٤، ص ٥.
- ٣٠- سعيد إسماعيل على: الأبعاد التربوية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فى مجلة : منار الإسلام، أبو ظبى، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف، العدد الثامن، السنة العاشرة، مايو ١٩٨٥، ص ٧٤.
- ٣١- فهمى هويدى: أزمة الوعي الدينى ، ص ٣٦.
- ٣٢- محمد سعيد رمضان البوطى: للسلفية : مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامى، دمشق، ص ٢٢٢.
- ٣٣- فهمى هويدى: القرآن والسلطان، القاهرة، دار الشروق، ١٩٨٢، ص ٤٣.
- ٣٤- المرجع السابق: ص ٤٤.
- ٣٥- محمد مصطفى المراغى: الاجتهاد فى الإسلام، القاهرة، المكتب الفنى للنشر، ١٩٥٩، ص ٣١.
- ٣٦- فهمى هويدى: القرآن والسلطان، ص ٢٣١.
- ٣٧- المرجع السابق، ص ٢٣٢.

٣٨- محمد عمارة: الإسلام وقضايا العصر، بيروت، دار الوحدة، ١٩٨٠، ص ١٥٠.

٣٩- المرجع السابق، ص ١٥١.

٤٠- محمود قمبر: دراسات تراثية فى التربية الإسلامية، الدوحة، دار الثقافة، ١٩٩٢، م ٣، ص ٢١٩.

٤١- سعيد إسماعيل على: معاهد التربية الإسلامية، القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٨٦، ص ١٥٨.

٤٢- محمد أسعد أطلس: التربية والتعليم فى الإسلام، بيروت، دار العلم للملايينى، ١٩٥٧، ص ٦٨.

٤٣- أحمد فؤاد الأهوانى: التربية فى الإسلام، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٨، ص ٦٣.

٤٤- محمود قمبر: دراسات تراثية، م ٣، ص ٢٢٢.

٤٥- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

٤٦- عبد الفتاح جلال: دور المسجد الجامع فى تعليم الكبار فى المجتمع المعاصر. فى المسجد وتعليم الكبار فى المجتمع المعاصر، سرس الليان، المركز الدولى للتعليم الوظيفى للكبار فى الوطن العبى، ١٩٧٨، ص ١٢.

٤٧- حسين مؤنس: المساجد، سلسلة عالم المعرفة، العدد (٣٧)، الكويت، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨١، ص ٣٧.

٤٨- محمد جواد رضا: العرب والتربية والحضارة، مرجع سابق، ص ١٧٠.

- ٤٩- المرجع السابق، ص ١٧٢.
- ٥٠- عمر فروخ: تاريخ العلوم عند العرب، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٠، ص ١٢٠.
- ٥١- محمد إبراهيم الشافعي: المسؤولية والجزاء في القرآن الكريم، القاهرة، مطبعة السنة المحمدية، ١٩٨٢، ص ٢٢.
- ٥٢- فهمي هويدي، حتى لا تكون فتنة، القاهرة، دار الشروق، ١٩٨٩، ص ٣٤٠.
- ٥٣- المرجع السابق، ص ٤١.
- ٥٤- المرجع السابق، ص ٤٢.
- ٥٥- محمد عمارة: الإسلام وحقوق الإنسان، سلسلة عالم المعرفة (٨٩) المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٥، ص ٧٠.
- ٥٦- المرجع السابق، ص ٧٣.
- ٥٧- فهمي هويدي: حتى لا تكون فتنة، ص ٢٠.
- ٥٨- محمد الغزالي: خلق المسلم، القاهرة، دار الكتب الحديثة، ١٩٧٤، ص ٢٢١.
- ٥٩- محمد عمارة: الإسلام وقضايا العصر، ص ٢٥.
- ٦٠- فهمي هويدي: حتى لا تكون فتنة، ص ٧٧.
- ٦١- محمد الغزالي: الإسلام والطاقات المعطلة، ص ١٢٣.